مصطفى الأزهري

أَلغَامٌ في البَيتِ المُسلِم

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

أميرة للطباعة
٥ شارع محمود الخضرى - عابدين
ت : ٣٩١٥٨١٧ محمول : ٠١٠١٤٥٦٠٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ

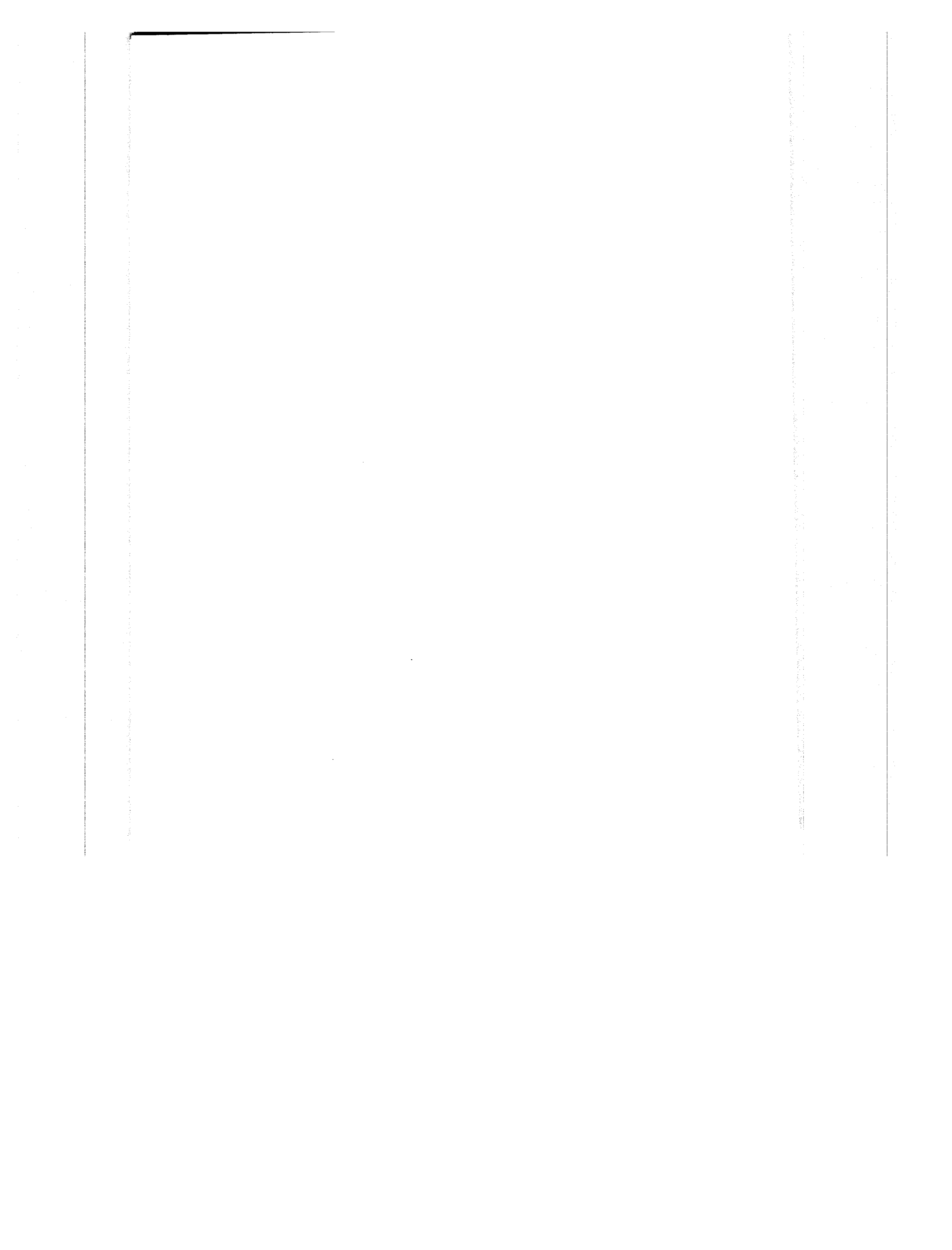
مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى سيدة نساء الجنة ..
إلى الزوجة الوفية ، والأخت التقية ، والأم الحانية
إلى أم المؤمنين الخالدة «خديجة بنت خويلد»
زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها

* * *

إهداء ثانٍ

إلى الزهرة التي سقتْها السماء بماء الهُدى
إلى شريكة العمر ورفيقة الطريق
إلى زوجتي الغالية بارك الله أيامها
زوجك «مصطفى»

تقديم
الأستاذ : جمال سلطان

يتميز الإسلام عن غيره بالتركيز الشديد على وضع الأسرة في المجتمع الإنساني ، وصحيح أن الإسلام يؤكد على مسؤولية الفرد وكونه «راعياً» ومسؤولاً عن رعيته في مجال ولايته ، فضلاً عن المسؤولية الفردية ﴿وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم:٩٥] ، و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] - إلا أن للأسرة مكانتها الخطيرة في الإسلام ، ولذلك لم يكن عجباً أن القرآن الكريم الذي أجمل في قضايا عديدة تتعلق بالأحكام الشرعية ، إلا أنه عندما وجه الخطاب إلى الأسرة وقضاياها نجده قد فصَّل تفصيلاً جازماً ودقيقاً وصارماً ، وأحياناً كان الأمر يقترب من المعادلات الرياضية ، كما هو الحال في المواريث الشرعية ، وذلك لأن الإسلام ينظر - أولاً - إلى الأسرة على أنها أساس المجتمع وخليته الأولى ، وثانياً ينظر الإسلام إلى قضايا الأسرة نظرة واقعية ، تدعو إلى القيم المُثلى ، ولكنها تدرك أنها ستعمل من خلال بشر ، لهم مواصفاتهم وأهواؤهم وتقلبات نفوسهم ، ومن ثم كان ضبط هذه القضايا المتعلقة بالأسرة يحتاج إلى حسم ودقة ، وعلى هذا المنهج القرآني يسير كتاب أخي الأستاذ مصطفى الأزهري ، حيث التفت إلى القضية الأم ، التي هي في الصميم من هموم الحركة الإسلامية والدعوة الإسلامية ، قضية الأسرة ومشكلاتها ، راصداً عدداً من المخاطر التي تمر بها الأسرة المسلمة المعاصرة ، كاشفاً عن خلفياتها النفسية والمادية ، ومحاولاً أن يطرح الحلول العملية الناجعة لهذه المشكلات ، والحقيقة أن كثيراً من المِحَن التي يمر بها أبناء الصحوة الإسلامية إنما تأتي عندما يبدأون مسؤولية تكوين الأسرة بالزواج ثم تربية الأولاد ، حيث تكون هناك مُثل عليا وقِيَم مجردة في تصور الأخ المسلم عن الحياة الزوجية بين اثنين من «الملتزمين» ، ولكنه يغيب عن باله أنه بشر له ضعفه وأخطاؤه ، وكذلك شريكته في حياته الزوجية ، فهي بشر ولها ضعفها وأخطاؤها ، ومن هذه الغفلة

عن الواقع والحياة في «المُثُل المجردة» تأتي الصدمات التي تعصف أحياناً بالبيت المسلم ، خاصة في مراحله الأولى ، ومن هنا تأتي قيمة هذا الكتاب لأحد شباب الدعاة الإسلاميين ، ويُحسب للكتاب أنه لم يقف عند مجرد المواعظ المباشرة ، أو الهروب وراء النص معفياً نفسه من التأمل ، بل هو غاصّ في الأبعاد النفسية للمشكلات التي تعترض الحياة الزوجية ، طارحاً الحل الشرعي والنفسي والتربوي الذي يراه ناجعاً لتلافي هذه المخاطر والمشكلات .

نسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يجزي صاحبه عن جهده فيه خيراً .

جمال سلطان

المقـــدمـــة

الحمد لله الذي خلقنا لعبادته ، وأوجدنا لطاعته ، ورفع العسر والحرج عن أتباع منهجه وشريعته ، وخلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها ، فتقر أعيننا ، وتطيب قلوبنا ، لننطلق في الحياة نسعى بدنيانا لأُخرانا في سكينة واطمئنان ، فارين من إغواء الشيطان إلى عصمة الرحمن .

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كلِ شيء قدير ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الرحمة والنعمة والهدى والنور ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وأتباعه وأحبابه أجمعين .

أما بعد ..

فالمقصود بالبيت المسلم ، هو ذلك البيت الذي التزم أهله بتعاليم الإسلام منهجاً وسلوكاً ، ونظموا حياتهم ، ورتبوا أحوالهم وفق الفكرة الإسلامية الواعية ، أي هو البيت المؤسس على هدى الإسلام وآدابه من أول يوم ، وقرر أهله - بعد توفيق الله - استئناف الحياة الإسلامية بمعناها الواضح الحقيقي ، وليس بالشكل التقليدي المتوارث ، وبيتٌ هؤلاء أهلُه يعد واحداً من عناصر البناء في الصرح الإسلامي المطلوب إعادة بنائه وإقامته ، ولكن على قواعد صلبة لا ضعف فيها ولا اختلال . والبيت المسلم بقدر ما هو بيت أقرب ما يكون إلى المثالية فإن أهله بشر من البشر يصيبون ويخطئون ، يزلون ويتوبون ، ويأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ككل الناس ، يعتريهم ما يعتري الناس من مشكلات ، لكن الفرق الجوهري بينهم وبين غيرهم من المنتسبين للإسلام اسماً وإرثاً هو أنهم ينطلقون في تصرفاتهم وفي مواجهة مشكلاتهم من منطلق الإيمان الواضح بتعاليم الإسلام ، ولوجوب المحافظة على كيان هذا البيت المسلم والمأمول فيه

أن يكون نموذجاً يُحتذى في إظهار روعة الإسلام وجماله في بناء الأسرة المسلمة - من أجل ذلك كتبنا هذا الكتاب !

وهو طائفة من المشكلات التي قد تصيب البيت المسلم ، فتعكر صفوه ، وتقلل من فاعليته في واقع الحياة الإسلامية ، وهو كما جاء في عنوانه «رؤية إسلامية لبعض مشكلاتنا الأسرية» .

أسأل الله - مولانا القدير - أن يجعل كل كلمة فيه خالصة لوجهه الكريم ، وأن يطفئ به نار الفتنة في بيوت المسلمين ، وألا يحرمني من وراء ذلك أجراً كريماً ، ودعاءاً مستجاباً ، آمين .

المؤلف

أزمة الاختيار

من أهم عناصر الحياة الزوجية السليمة «حسن الاختيار» اختيار شريك الحياة ، ورفيق العمر ، سواء بسواء ، الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ، فالبناء الذي يقوم على أساس واهٍ وضعيف مآله المحتوم انهيار طبقاته ، وتداعي مكوناته ، مهما علت وارتفعت ، وبدت تسر الناظرين .

وتعدد الطبقات في البناء المادي الحجري يماثله مرور الشهور والسنوات على الحياة الزوجية ، فإن قامت على قواعد متهافتة من المظاهر الخادعة ، والتقاليد الزائفة ، والأمور الثانوية التافهة فهي لا ينفعها سنوات تمر ، بل تعد هذه السنوات نفسها «آلة نسيج I تفرز خيوطاً متشابكة ، ملفوف بعضها على بعض ، دونما نظام أو ترتيب ، مكوِّنة عُقداً يصعب حلها ، وإنما سبب ذلك خلل في أصل «الآلة» نفسها ، فكم من علاقات زوجية قامت على أساس غير سليم بالمفهوم الشرعي ، وقُدِّر لها - لظروف كثيرة - الدوام والاستمرار ، لكنها ديمومة مَن يصحو كل صباح ليجد نفسه لا يزال بين جدران «زنزانته الزوجية» ، من أجل ذلك كان الإرشاد النبوي بتحديد الأساس الذي يتم على أساسه هذا «الاختيار» ، فبالنسبة لمسالة أو معيار اختيار الرجل للمرأة - كشريكة حياة - فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم أنه قال : «تُنكح المرأة لأربع : لجمالها ، ولمالها ، ولنسبها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك» رواه البخاري ومسلم .

إن مسألة «الاختيار» تعتبر مسألة حساسة غاية الحساسية ، بل نستطيع أن نعبر عنها بالمصطلح السياسي للقرارات المصيرية ، فنقول إنها «قرار استراتيجي» ، وذلك لما يترتب عليه من أمور وأحوال وقيَم ، يتعلق عليها جانب كبير جداً من سعادة الإنسان أو تعاسته ، والمؤسف حقاً أنه حين يضعف الوازع الديني ، وتفتر الطاقة الإيمانية في حياة المسلمين ، وتختل بهم وتضطرب الموازين وتتبدل المقاييس ، وتتغير المعايير -

يستحوذ السؤال عن المكانة والوظيفة والمال و«الواجهة الاجتماعية» ، يستحوذ كل هذا على اهتمامات ولي المرأة ، ويتجاهل مسألة «الالتزام الديني» ، الذي لا يجوز أصلاً إغفاله ، أو التنازل عنه ، فضلاً عن تجاهله ، ونحن هنا لا نقلل من أهمية الجوانب الأخرى ، ولا ننكر أنها من دوافع القبول والاختيار ، ولكن أن يكون «الدين» بمعناه الشامل المستوعِب لسلوك المسلم جميعه .

أقول : أن يكون هو القاعدة التي يتم عليها بناء قرار سليم وراشد في اختيار الزوج أو الزوجة ، والبُعد عن هذا المنطق ، ومجافاة هذه الروح - روح الاختيار الإسلامي - يؤدي إلى ظهور الفتنة وشيوع الفساد ، وهبوط المؤشر الأخلاقي في داخل الأسرة الجديدة ، وهذا ما يفيده بجلاء قول النبي - عليه الصلاة والسلام - : «إذا جاءكم مَن ترضَوْن دينه وخُلُقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تَكُنْ فتنة في الأرض وفساد كبير» رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه .

ويلاحظ في هذا الحديث الشريف أنه قال : «... ترضون دينه وخلقه» ، ولقد توقفت ملياً وتساءلت : تُرى لماذا لم يقتصر القول النبوي الكريم هنا على لفظة «دينه» بل أتبعها بكلمة «وخلقه» ؟ ، ألم تكن تغني الكلمة الأولى عن الثانية ؟!

وتجولت في أحوال المسلمين ، وتعاملت مع طائفة من مشكلاتهم الأسرية فتبين لي - بفضله تعالى - روعة هذا الحديث وعظمته ، إذ رأيت أزواجاً وزوجات تم الارتباط بينهم على أساس «التدين الظاهري» دون شيء من البحث والتحري والسؤال الضروري عن البيئة والمُناخ الذي نشأ وتربى فيه كل منهما ، فرأيت أن اللحية المرسلة للأخ المسلم ، والنقاب للأخت المسلمة كانا من أبلغ العوامل الدافعة والمؤثرة في قرار الاختيار ، وإذا بنا نسمع بعد الزواج عن مشكلات ما كان ينبغي أن تخرج من بيت كهذا يراه الناس قبلة خير وهُدى ، بينما هو مرتع لآفات الضيق والغضب والشقاق ، ونخلص من هذا إلى النتيجة التالية وهي أنه : ليس كل متدين ذا خلق ، وليس كل ذي خلق صاحب دين ، ولكي أزيد هذه النقطة وضوحاً وجلاءً أقول : قد نرى أخاً مسلماً ملتزماً بالشعائر ذا عقيدة صحيحة ، وثقافة إسلامية لا بأس بها ، ونراه

يستمسك بالهدْي الظاهر للإسلام ، بل وهو يحافظ على تفصيلات السنن ، كل هذا طيب ومطلوب ، لكننا نراه - في نفس الوقت - في تعامله مع أهله فظاً غليظاً ، فيه شيء من الأنانية وحب الذات ، لا بأس عنده أن يجرح مشاعر الناس بدعوى «قول الحق» ، يضحك ملء فمه مع إخوانه وأصدقائه ، حتى إذا رجع إلى بيته فإذا بالوجه المكفهر و«التقطيب» البغيض ، ينذر ويحذر ، ويعد بالنار وبئس المصير إن أهملت زوجته حقاً من حقوقه ، بينما يرى هو أنه ما دام يملأ بطن أهله بالطعام والشراب فقد أدى ما عليه والحمد لله ! ، فلينمْ ملء عينيه ، قرير النفس والبال ، والجنة بعد ذلك تناديه على شوق ولهفة !!!

هذا الصّنف من الناس يقدم أسوأ صورة عن «التدين» ، ويعطي للمبطلين أعظم فرصة للطعن في الدين نفسه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وعلى الجانب الآخر قد نجد إنساناً مهذباً ، هادئ الطبع ، رقيق السجية ، يراعي الآداب العامة ، ويرعى التقاليد السائدة ، لكن مع هذه الصفات الحميدة لا نجده ينطلق في سلوكه من مفهوم شرعي للالتزام ، وهو ينتمي للإسلام انتماءاً إرثياً تقليدياً بمنطق القائل : «رأيت الناس يقولون شيئاً فقلتُه» !

والمطلوب إذاً أن يتم الاختيار على أساس «العقيدة الصحيحة» كأصل ، والأخلاق كثمرة لهذه العقيدة ، وإلا فسوف يصير معنى «الالتزام» جافاً غير مثمر ، تتساقط أوراقه يوماً بعد يوم .

وهنا يقول الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق : «يجب أن نبحث قبل الزواج عن «المعدِن» النقي للإنسان ، وهذا المعدن صناعة إلهية ليست كسْبية ، كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لأحد أصحابه : «إن فيك خَصلتين يحبهما الله ورسوله الحِلْم والأناة ، قال : يا رسول الله ! ، خصلتان جُبلت عليهما أم تخلَّقتُ بهما ؟ ، قال : بل جُبلت عليهما ...» الحديث .

ويعلق الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق على هذا الحديث النبوي فيقول : «وهذا يعني أن هذا الصحابي قد خُلق حليماً متأنياً قبل أن يكون مسلماً ، وهذه المعادن البشرية تتفاوت نقاوة وجودة ، ثم الدين ، وعرفنا أن المقصود بالدين حقيقة الدين لا ظاهره فقط ، والدين عاصم من الظلم والانحراف ومقيم للزوجين - إن أقاماه - على سبق الخير والسعادة والصلاح» .

ثم يختم الشيخ كلامه فيقول : «وإذا اجتمعت هاتان الصفتان في رجل أو امرأة صنعت الأعاجيب ، فنقاوة المعدن إذا صادفت فقه الدين ، وتشربت أحكامه أخرج هذا ثماراً طيبة من الخُلُق الكامل والعفة والطهارة والاتزان والصدق والوفاء والتفاني في خدمة الآخرين والاعتراف بالجميل ، وهذه الصفات كلها صفات لازمة ضرورية في الزوجين لكل زواج ناجح ، وذلك أن الشذوذ والانحراف أو التقلب والتذبذب أو الجحود ونكران الجميل أو الكذب أو التعالي ، واحدة من هذه الصفات في أحد الزوجين كافية لهدم السعادة الزوجية ومورثة للشقاء والهموم» أ.هـ.

أسرار في الطريق العام !

تمتاز العلاقة الزوجية في «ظلال الإسلام» بأنها علاقة ذات ضمانات قوية ومُحكمة ، وهي محاطة بسياج متين من الأخلاق الكريمة وقد وضعت تعاليم الدين الحنيف للعلاقة الزوجية كل ما يصونها من عوامل الضعف والانهيار ، ويحفظها من التفكك والفشل ، ومن الأمور المهمة والحساسة - والتي يمثل الحفاظ عليها جداراً متيناً يرتكن عليه طرفا هذه العلاقة وهما الزوجان - مسألة «أسرار البيت» ، وهي مسألة ، وإن كان كثير من العلماء والمفكرين قد تناولوها وأفاضوا في الحديث عنها بما يغني عن التكرار ، إلا أن الواقع الاجتماعي في «التحرك الإسلامي» ينبئ بوجود خلل في العديد من البيوتات الإسلامية ، وهذا الخلل أدى - بدوره - إلى اتساع الفجوات الأخلاقية ، مما يجعل كلاً من الرجل أو المرأة لا يقدِّران خطورة كشف الأسرار الخاصة التي تدور تحت «سقف البيت» ، أو حتى في غرفة النوم ! ، فتصبح الحياة الزوجية كلأً ومرتعاً لكل لاعق نَهِم ، وهذا أخطر ما في الأمر ، ولست أدري كيف نمر على قوله - تعالى - : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧] ؟! .

أقول كيف نمر على ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ..﴾ ثم لا نتوقف لنتأمل جوانب العظمة ، وملامح الروعة ، وقسمات الإعجاز في هذه اللفظة البديعة (لباس)؟! ، إنها تُلقي على الزوجين ظلاً ممدوداً من الستر والحماية ، وتفيض عليهما بكل معاني الصيانة والعفاف ، وهذه المعاني الجميلة الرقيقة لا يتحرك لها ولا ينبض بها إلا قلب قرآني ، يعيش صاحبه معاني الزواج الرائعة في ظلال القرآن ، وعلى منهج الإسلام وبعد فنتساءل : كيف يجرؤ مسلم ملتزم ، أو مسلمة ملتزمة - يعرفان حقاً قدسية «الأسرار الخاصة» وخطورة إفشائها - كيف يجرؤ إنسان ذو خلق كريم تجري في عروقه دماء الحياء أن يطلق لسانه بوصف ما يستره ذلك «اللباس» ، فإذا وجهنا

النصيحة للمرأة المسلمة - وهي «راعية في بيت زوجها» ، ومسئولة عما يدور فيه - فنقول لها : يا أختاه ! ، يا أمة الله ! ، يا مَن هداك الله لطريق الهدى والفلاح ! ، اسمعي - وبارك الله فيك - : «إن البيت أخص ما يملك الرجل ، فيه سكنه وسكينته ، وأمنه وأمانه ، فيه يضع حوائجه وخصوصياته ، وما لا يجب أن يراه أو يعلمه الناس حتى ولو كانوا أقاربه وذوي رَحِمه ! .

فعليكِ - إذاً - أيتها الزوجة الملتزمة بتعاليم دينك - أن تعيني زوجك على الثقة بك ، فيشعر بالأمان ، والأمان - يا أختي الفاضلة - من أمسّ وأعز ما يحتاجه الإنسان ، فإذا لم توفريه لزوجك بحفظك لأسرار بيتك ، والذي هو - قبل كل شيء - مملكتك أنت فكيف تكون المعيشة ؟ ، وما شكل الحياة ؟ .

إن بيتاً بلا أسرار هو بيت قد أعطى أصحابه «مفتاحه» للصوص ، ولكن عن طواعية ، وبكامل رضاهم !! ، والمرأة العفيفة الملتزمة حقاً - لا «زياً» فقط - هي تلك التي تحمي بيتها من لسانها أولاً أن ينفلت ليصف ما كان مستوراً داخل البيت لم يَرَهُ أحد ، وهي إن صانت أسرار بيتها فإنها تسقي بماء الأمانة والعفاف شجرة «السكن» التي سينعم بظلالها الوارفة جميع أفراد البيت ، و«السكن» هو من أجلّ نعم الله - تعالى - على البشر إذ يقول -عز وجل : ﴿واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ [النحل:٨٠] ، ومن إشعاعات كلمة «سكن» السكون ، أي الصمت والهدوء والراحة ، ومنه - أيضاً - صون أسرار البيت لكي يتحقق مفهوم ومضمون الألفة والمودة والسكينة في هذا «السكن» ، ومن صفات الرجل الحر الكريم الغيور أن يستر بيته ويحجب عنه ما استطاع من الأخطار والمضار ، وليس أخطر ولا أضر على البيت من أهله إذا هم لم يصونوا أسرارهم ! ، وليس أعجب من أن يتفنن الناس في ستر جدران البيوت وحوائطها بألوان عديدة من «الستائر» ، ثم هم يكشفون عوراتهم بألسنتهم !!

وإن مما يقدح في رجولة الرجل وكرامته ومروءته أن يجعل أسرار بيته بضاعة معروضة للناس بلا ثمن على قارعة الطريق !

والشاعر الحكيم يقول :

واحفظْ لسانَك واحترزْ من لفظِهِ
فالمرءُ يسلمُ باللسانِ ويعطبُ

وَزِنِ الكلامَ إذا نطقتَ ولا تكنْ
ثرثارةً في كلِّ نادٍ تخطبُ

والسرٌ فاكتمهُ ولا تنطقْ بهِ
فهو الأسيرُ لديك إذا لا ينشبُ

ولعل من أقبح ما يتمثل به الإنسان أن يمثل بالشيطان ، ولعلنا - أيضاً - لا ننسى أن من أخطر وسائل الشيطان للإيقاع ببني آدم هو «كشف العورات» ، ولقد كانت هذه من أوائل حِيله واعتداءاته على آدم وحواء كما أخبرنا الحق - جل وعلا - بقوله : ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾[الأعراف:٢٧].

ونزع «اللباس» لا يكون فقط بالعُري الظاهر «التكشف والتبرج» ، بل يكون - أيضاً - بكشف الأسرار ، وهتك حرمة الحياة الخاصة ، ولذلك جاء التحذير النبوي ببشّع هذه الصورة ، ويدفع المؤمنين بعيداً عن الوقوع فيها فهي - على كل حال - أخلاق لا تليق بالمسلم أو المسلمة ، فعن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ألا يخشى أحدكم أن يخلو بأهله يغلق باباً ، ثم يرخي ستراً ، ثم يقضي حاجته ، ثم إذا خرج حدّث أصحابه بذلك ، ألا تخشى إحداكن أن تغلق بابها ، وترخي سترها ، فإذا قضت حاجتها حدثت صواحبها ؟» ، فقالت امرأة : والله - يا رسول الله ! - إنهن لَيفعلْنَ ، وإنهم لَيفعلون» . قال : «فلا تفعلوا فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة على قارعة الطريق ، فقضى حاجته منها ، ثم انصرف ، وتركها» رواه البزار عن روح عن حاتم ، وهو ضعيف ، وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد) .

آفة البخل

إن البخل آفة أخلاقية ومرض اجتماعي يؤدي إلى التنافر والتباغض وقطع الصلات (التي أمر الله أن توصل) ، وهي صفة من الصفات المذمومة شرعاً ، المرفوضة بالطبع ، ومن أُصيب بها فهو كالأجرب ينفر منه الناس ، ولا يتعاملون معه إلا بحذر ، فنصيب البخيل في الدنيا نفور الخلق منه ، وكراهيتهم له ، واحتقارهم لشأنه ، أما في الآخرة ففي انتظاره سوء العذاب (وبئس المصير) ، والقرآن الكريم حين تحدث عن البخلاء قرع أسماعهم بأشد وأغلظ صيغ التهديد والوعيد ، مما يدل على خطورة الجريمة ، وبشاعة اقترافها ، يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [آل عمران :١٨٠] ، ولقد حذر النبي - صلى الله عليه وسلم - من الاتصاف بتلك الصفة البغيضة ، لأنها تؤدي إلى طريق المهالك والمفاسد ، بل تعمل على تهديد كِيان المجتمع المسلم ، وتعوق مسيرته ، فيقول - عليه الصلاة والسلام - : «اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك مَن كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم» رواه مسلم وأحمد .

والخالق - سبحانه وتعالى - جواد كريم ، فهو يحب الكرماء أهل السخاء والعطاء ، لأنهم يتخلقون بأحب الأخلاق إلى الله تعالى ، فهو - سبحانه - يدعو إلى الكرم ويقرب أهله منه ، ويضع الأسخياء على مشارف الجنة ، يهيّئهم لدخولها يوم اللقاء ، ويفتح لهم قلوب الناس ، فيحبونهم ويألفونهم ، وقُلْ عكس ذلك كله في البخل والبخلاء .

يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم - : «السخي قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، قريب من النار ، ولَجاهل سخي أحب إلى الله - عز وجل - من عابد بخيل» رواه الترمذي ، وقال غريب ، كما أن الجنة - وهي غاية السعداء - قد غلّقت أبوابها في وجه

أهل البخل ، فلا حظ لهم فيها ، ولا يحب الله - تعالى - جوارهم ، ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «لا يدخل الجنة بخيل» رواه أحمد والترمذي .

والإيمان الحق بالله واليوم الآخر يحض صاحبه ويدفعه دفعاً إلى البذل والإنفاق في وجوه الخير العديدة احتساباً عند المولى الكريم - سبحانه وتعالى - الذي لا تضيع عنده نفقة أنفقها العبد ابتغاء وجهه الكريم ، يقول تعالى : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل:٩٦] ، والإيمان والشح ضدان لا يجتمعان ، وخَصمان لا يأتلفان ، وشتان شتان بين الظلمة والنور ، وبين الهدى والضلال ، وبين السخاء والبخل ، وإن مَن يدعي الإيمان بالله واليوم الآخر ويزعم الالتزام بالإسلام كمنهج حياة وطريقة سلوك ، ثم يكون شحيحاً بخيلاً قتوراً فمثل هذا الإيمان كمثل شجرة لا ثمار فيها ولا أوراق ولا حتى فروع تقف عليها الطيور للحظات لتستريح من عناء الطير ، أو تجد فيها شيئاً تلتقطه ! ، وأصلح شيء لمثل هذه الشجرة أن تُجتثَّ من أصولها لتُلقى في النار حطباً ودخاناً ، وهذا مصداق قول نبينا - صلى الله عليه وسلم - : «لا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم أبداً» رواه أحمد والنسائي .

والحق يقال ، فالزوجة التي وقعت في شِبَاك زوج بخيل ممسك هي - بلا ريب - في ابتلاء شديد ، ولكني أقف - هنا - وقفة بأختي المسلمة ، لأقول لها : «إذا كان زوجك ينفق عليك وعلى أولادك بما يتناسب مع دخله» لكنه قد يراعي الأولويات في الإنفاق فهذا لا عيب فيه ، ولا يعد بخلاً ، بل هو لون من ألوان التنظيم الاقتصادي الذي يحتاجه كل بيت ، فعليك أن تشاركه في إدارة العملية الاقتصادية داخل البيت بما يحافظ على تماسكه المادي بالقدر المعقول ، كذلك عدم تلبية الزوج لمطالبك الفائقة عن قدرته المادية لا يعني أن تحكمي عليه بأنه «بخيل وشحيح» ، والزوجة الصالحة القانتة الوفية هي التي لا تلجأ إلى هذا الأسلوب أسلوب (ما لا طاقة لنا به) لكشف ستر الزوج «اقتصادياً» ، ثم تتهمه بعد ذلك وتعيّره بالبخل والتقتير !

يقول الأستاذ فصيح بهلول : «هناك بعض الأساليب التي تنتهجها نسبة من الزوجات قد تظنها محدودة الأثر ، لكنها برغم كل الاحتياطات قد تضر الحياة الزوجية

ضرراً بالغاً ، وقد تأتي عليه تماماً إذا كانت تلك القشة هي الباقية لقصم ظهر البعير ، من هذه الأساليب محاولة بعض الزوجات توريط الزوج تدريجياً في طلبات مادية لا تحتاج لها كثيراً ، لكنها تتحسس بها مدى تحمُّل الزوج مادياً لتحقيقها كمقياس لمقدار دخله المالي ، ويجب أن نفهم أن استجابته ولو كانت سريعة - لتحقيق تلك المطالب ليس بالضرورة دليلاً على القدرة المادية ، بل قد تكون محاولة منه لإظهار حبه لها ، أو براعة منه في ابتلاع هذه الخسارة ، أو تحمُّل هذه الورطة فلم يُظهر لها معاناته ، ظناً منه أنها قد لا تتفوه بكلمة لنفس السبب ، لكنه قد لا ينسى لها هذا التوريط المتعمد والمباغت ، وقد يضيفه إلى ميزان سيئاتها» أ.هـ.

ومن أجل أن يعتدل ميزان البيت المسلم ويمضي في الاتجاه الصحيح - فيما يخص «مسألة الإنفاق على الأسرة» - يوجه الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - نصيحته فيقول : «وعلى رب البيت أن يتعرف المطالب المعقولة لأهله وولده ، وأن ينفق عن سعة في قضائها ، فليس من الدين أن يدع المرء زوجته أو بَنيه وبناته في حال قلة من الاحتياج والضيق ، ثم يضع ماله في مصرف آخر مهما كان خطره ، فروابط الأسرة أولى بالعناية ، وأحق بالتوثيق من غيرها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : «دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على أهلك ، أعظمهما أجراً الذي أنفقته على أهلك» رواه مسلم ، وقال صلى الله عليه وسلم - : «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة - وهو يحتسبها - كانت له صدقة» رواه البخاري» .

ثم يقول الشيخ الغزالي - رحمه الله - : «والإسلام يريد أن يرتب النفقات المشروعة الترتيب المثمر الصالح ، فإن الأسرة قوام المجتمع الكبير ، والخلية الحية التي تكوِّن بناءه الضخم ، فتوجيه العناية إليها أولاً أجدى على الأمة كلها من حرمانها وتحويل حقوقها عنها ، ثم إن في هذا الإرشاد زجراً لطائفة من الناس يجنحون إلى الشوق خارج بيوتهم وبين أصدقائهم أو الغرباء عنهم ، فإذا خلوا إلى أهلهم كانوا أمثلة سيئة للتقتير والعسف» أ.هـ.

والزوجة المسلمة الملتزمة هي التي ترضى بما قسم الله لها ، ولا تسخط أبداً على قدر الله ، فإن كان زوجها فقيراً ، يبذل ما في وسعه لإسعاد أسرته، ورفع مستوى معيشتهم عن طريق الحلال والعمل المباح - فلا عليه بعد ذلك إن قل حظه من الدنيا ، والزوجة القانعة هي التي تعين زوجها على تلك القناعة والرضا ، وفي هذا يقول الأستاذ محمد حسين للزوجة المؤمنة : «أنا لا أدعوكِ إلى الفقر ، ولكني أدعوك إلى حسن العمل في الفقر ، وهو الرضا والقناعة بما قدر لك الله ، والصبر على مشاكل الحياة الشاقة ، وسلوك المؤمنة التقية مع زوجها وأهلها بعدم التبرم والشكوى والمطالبات له ، وزوجك عينه بصيرة ، ويده قصيرة ، بل هو أحرص الناس على أن يجلب لك مُتع الحياة ، وييسر لك سبل العيش الواسع ، ومن الإيمان الرضا بالقضاء خيره وشره ، حلوه ومره ، ومن أسس السعادة القناعة ، واغتنام فرص الطاعة ، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قد أفلح مَن أسلم ورُزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه» .

المقارنة القاتلة

من أخطر الأشياء التي تهدد كيان الأسرة الدخول في دائرة «المقارنة القاتلة» - أياً كان نوع هذه المقارنة - فبعض النساء إذا أرادت إحداهن أن تحفز زوجها للقيام بعمل ما ، أو استنهاضه ليحقق لها مستوًى معيناً من المعيشة فهي لا تجد أمامها إلا أسلوب المقارنة بالآخرين ، دون تقدير لظروف وإمكانات وقدرات الزوج الخاصة ، فلكل البشر «قدرات خاصة» تتناسب مع المكونات الذاتية لكل إنسان ، وكل مخلوق «ميسَّر لما خُلق له» ، والزوجة الذكية هي التي تلاحظ هذه القدرات الخاصة لزوجها ، وتحاول تنمية مواهبه بأسلوب يدفع إلى الأمام ، ويرفع المعنويات ، لا بأسلوب أو طريقة تسبب الإحباط ، وترسخ في نفس الزوج الإحساس بالدونية ، أما أن تُدخل المرأة زوجها في مقارنات غير متكافئة مع غيره من الناس فتلك هي الآفة اللعينة التي تنخر في جذور علاقتها بزوجها ، فالرجل بطبعه لا يحب أن يقارَن بغيره ، بل يسعده كل السعادة أن يكون في عين زوجته هو مَن يملك كل مواهب الدنيا ، أما أن تهوّن من أي عمل يقوم به ، أو تقلل من جدواه وأهميته فإنها امرأة فقدت جانباً كبيرا من دورها ومهمتها في الحياة ، وهو إسعاد زوجها ، وتجسيم فضائله ، والتي سيعود جانب كبير من ذلك على حياتها واستقرارها تحت ظلال وارفة من السعادة الزوجية ، وفي هذا الإطار يقول الأستاذ مجدي الشهاوي : «قد تتلفظ المرأة بألفاظ ذات وقع مدمر على زوجها ، وهي لا تدري ، كأن تتهمه بأنه ضعيف الشخصية أو غير ذلك ، ومثل هذا الاتهام قد يُلحق أذًى حقيقياً بالرجل إذا لم يكن واثقاً بقدرته على مواجهة الحياة ، ضارباً برأي زوجته فيه عرض الحائط ، بل قد يؤدي إلى تحطيم شخصيته ، فالكلمة الجارحة أشد فتكاً من السهام القاتلة ، وإن الكثير من الزوجات - ويا لَلأسف - بارعات في «فنون» الشكوى والتعيير والاستخفاف والتحقير ، وهي ألوان منوعة من التعذيب النفسي للغير ، وخاصة إذا كان هذا «الغير» هو الزوج ... ومن أسوأ مظاهر «النّقّار» - كثرة الشجار - أن تعير

المرأة زوجها بغيره من الناس .. لماذا لا تكسب مثل فلان ؟ ... لماذا لا تفعل لي مثلما فعل فلان لزوجته .. إلى آخره ...» أ.هـ.

وأخطر ما في الأمر أن يندفع الزوج - فراراً من نقد زوجته اللاذع ومقارنتها المحرقة - إلى البحث عن وسائل «غير مشروعة» لزيادة دخله ، أو اللعب الكاذب بأفكار زوجته باختلاق ورسم هالات خادعة حول شخصيته التي لم يُخلق مثلها !! ، وكل هذا حتى ترضى عنه «السيدة» !

وبدل أن يكون زوجاً سوياً وفياً صادقاً يتحول - بسبب زوجته الساخطة على معيشتها - إلى شخص ازدواجي النزعة ، يعاملها بوجهين ، كلاهما - في الحقيقة - أقبح من الآخر ، وذلك إن كان لا يزال حريصاً على استمرار هذه الحياة بأي شكل ، وعلى أية صورة !!

تقول الأستاذة عايدة أحمد صلال : «إياكِ أن تقارني بين زوجك وبين أي زوج آخر أكثر منه نجاحاً - في الناحية المادية مثلاً - حذارِ أن تعطيه - ولو بصورة غير مباشرة - أية فكرة بأنك تحسدين الأخريات ، وتغارين منهن ، لأن أزواجهن يكسبن ويربحن أكثر ، شدِّدي على الجوانب الإيجابية التي تستند إلى قدرة زوجك على الكسب ، إذا لم يكن عمله بصورة حسنة في الوقت الحاضر فاجعليه يشعر بأنك متأكدة تماماً من أن الظروف القادمة ستكون أفضل ، إن منحك إياه الإحساس بالنجاح كممول سيكون عنصر تشجيع محققاً له على التقدم في طريق العمل الذي اختاره لكسب عيشه وعيش أسرته ، وبذلك لن تحصلي فقط على شكره وامتنانه لتفهمك ، بل ستفوزين أيضاً بكل الإخلاص والحب اللذين يستطيع الرجل أن يسبغهما على المرأة» أ.هـ.

ولعل المقارنة المادية تكون أهون شأناً من مقارنات أخرى أكبر خطراً ، وأعمق أثراً ، كأن يظهر من الزوجة شيء من الإعجاب بقوة عضلات شخص ما ، أو جمال ملامحه ، أو هندامه أو غير ذلك ، مما قد يفتح باباً واسعاً ، يدخل منه الشيطان - والعياذ بالله - ليوسوس ويهمز وينفث في قلب الزوج ، فتندلع حريق الخلافات

والمشاحنات ، والتي لا تُؤْمَنُ عواقبها ، صحيح أن البيت المسلم الملتزم قد يكون أهله في منأى عن الوقوع في تلك الهوة - إذ هو بيت مؤسس على العفاف والطهر ورضا كل من الطرفين بصاحبه إلا أنه - البيت المسلم - عُرضة لأن يمسه شيء من أخلاط المجتمع وشوائبه ، إن التنافس الحق يجب أن ينصرف إلى الأعمال الطيبة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف،٤٦] ، والمولى - سبحانه وتعالى - يوجه عباده وأولياءه المؤمنين إلى خير ألوان التنافس والتباري والسبق ، فيقول - عز وجل - : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [سورة المطففين] .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - يوصينا بعدم التطلع إلى ما في أيدي الآخرين ، وألا يكون جمع متاع الدنيا هو «أكبر همنا» أو «مبلغ علمنا» ، فنتيجة أن يمد المرء بصره إلى مَن هم أكثر منه حظاً في دنياهم ومعاشهم - أن يقدح في نعمة الشكر ، أو يحقر ما وهبنا الله من هبات ، وما أكثرها وأعظمها (لو كانوا يعلمون) فيقول - عليه الصلاة والسلام - : «لا تنظروا إلى مَن فوقكم ، وانظروا إلى مَن هو أسفل منكم ، فإنه أجدر ألا تزدروا (أي تحتقروا) نعمة الله عليكم» رواه أحمد .

وفي الفصل الثامن والعشرين - من كتابها المسمى : «ادفعي زوجك إلى النجاح» - تحدثنا السيدة «دوروثى كارنجى» ، وتوجه نصائحها القيّمة لكل زوجة ، فتقول : «إن الأثر الذي يطبعه زوجك في الناس إنما هو انعكاس للأثر الذي تطبعينه أنت فيه ! ، عاملي زوجك بوصفه رجلاً ناجحاً ، فإذا هو ينفث مواهبه كلها في عمله ليكون عند حسن ظنك به ، فالزوجة مسئولة - إلى حد أكبر مما تتصور - عن تهيئة الجو الذهني الذي يعيش فيه زوجها ، وقَلَّ أن تجدي رجلاً ميّالاً إلى الخروج على فضيلة التواضع ، والتحدث عن نفسه حديث المتفاخر المزهوّ ، ولكن الزوجة لن يضيرها أن تحيطه بالجو الذي يُشعره بالفخر والزهو ، بشرط ألا تغالي ، أو تبالغ ، أو تصيبه بالغرور ، ولكل رجل عيوبه ونقائصه ، وكان «بيتهوفن» أصم ، وكان «بايرون» مفرطح القدم ، وكان

نابليون يهاب التحدث مع المجتمعات العامة ، وإنه لَيقع على عاتق الزوجة أن تهون من شأن عيوب زوجها ونقائصه ، وتمنعها من أن تقف عثرة في طريق عمله.

وقد يكون التواضع صفة محببة في الرجال ، ولكن يُخشى أن يبالغ فيها الرجل حتى يصدقه الناس ، ولا يقوّموه بقيمته الحقيقية ! ، فماذا أنتِ صانعة لتلافي هذا الأمر؟ ،

هذه اقتراحات ثلاثة تعينك على موازنة فضيلة التواضع التي يتحلى بها زوجك بحيث تغدو في مكانها الصحيح :

ذكّريه بالأعمال الناجحة التي حققها في الماضي .

شجعيه على إبداء آرائه بأن تسأليه الرأي كلما أمكنك .

احفزيه على مخالطة الناس الذين يقدرونه ويلهمونه .

وقد لا يكون الأثر الذي يتركه زوجك في الناس مساوياً لقيمته الحقيقية ، ولكنه هو المسؤول عن تكوين رأي الناس فيه ، فما ضر أن يكوّن عنه الناس رأياً طيباً» أ.هـ.

وإن مما يفسد العلاقة الطيبة بين الزوجين ، ويعكر صفوها - أو على الأقل ، وهو ليس قليلاً - يُسقط الرجل من عين امرأته أن يفاخر أمامها - أو أمام غيرها - بحكاياته عن مغامراته قبل الزواج ومقارنته زوجته «الحلال» بخليلات الهوى والفسق ، وهذا ليس من المعاشرة بالمعروف ، والتي أوصى بها القرآن الكريم المسلمين ﴿وعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[النساء:١٩] ، بل هو تصرف مشين يجب الإقلاع عنه فوراً ، والتوبة منه حالاً ، والاستغفار إلى الله - تعالى - عسى أن يغفر له ، وليستر صاحبنا نفسه بستر الله له ، وإلا تعرض لخزي الدنيا وعذاب الآخرة وفقدان معافاة الله - جل وعلا - إذ يقول النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - : «كل أمتي مُعَافًى إلا المجاهرين» متفق عليه ، ويقول أيضاً - : «مَن أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر ، فإن مَن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله» ، وبقدر ما شدد الإسلام في تحريمه للكذب بكل صوره وأشكاله إلا أنه أباحه في ثلاثة مواضع ، منها : حديث الزوجين إلى بعضهما بالمدح ، وإظهار

صفات حسنة قد لا تكون موجودة حقاً ، وإضفاء جو من الألفة والود على العلاقة الزوجية حتى وإن لم تكن القلوب تحمل «المشاعر الدافئة» !!

فعن أم كلثوم بنت عقبة قالت : «ما سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رخّص في شيء من الكذب إلا في ثلاث «الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها» رواه مسلم .

الغَيْرَة الحمراء

تحتاج الحياة الزوجية السوية إلى قدر معقول ومقبول من الغيرة التي تنادي بها الفطرة السليمة ، فالغيرة المحمودة تعتبر «آلية دفاع» عن الكيان المشروع للأسرة ، ولكن ما هي الغيرة ؟ إنها الحميَّة والأَنَفَة ، أو هي شعور داخلي يدفع الإنسان إلى اتخاذ سلوك معين ، أو موقف محدد دفاعاً عن شيء مصون ، لا يرضى صاحبه أن يقربه أحد بسوء ، وللإمام شمس الدين ابن قيِّم الجوزية - رحمه الله - تقسيم جميل لموضوع «الغيرة» ، حيث يقول : «ملاك الغيرة وأعلاها ثلاثة أنواع : غيرة العبد لربه أن تُنتهك محارمه ، وتضيع حدوده ، وغيرته على قلبه أن يسكن إلى غيره ، وأن يأنس بسواه ، وغيرته على حرمته أن يتطلع عليها غيره ، فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة ، وما عداها فإما من خدع الشيطان ، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوج عليها» أ.هـ.

فالغيرة شعور إنساني يحتاج إلى ضبط وتوسط ، أي لا إفراط ولا تفريط ، فالزوج السوي هو الذي يغار على أهله غيرة شرعية ، بمعنى أنه لا يسمح للأغراب بالتبسط في معاملة أهله ، ولا يقبل أن تكشف زوجته حجابها لغير محارمها ، وهكذا ...، وكذلك لا ينبغي أن يبالغ في غيرته ، بحيث تخرج عن الحد المعقول لتتحول إلى رقابة وحصار وتخوين وتتبع لخطوات وتصرفات الزوجة ، فتلتهب الحياة ، وتتحول إلى جحيم نفسي ، وشقاء أسري ، ويفقد المرء بسبب غيرته «الحمراء» أهم ركن يقوم عليه بناء أسري قوي ومتين ، يقول تعالى : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة:١٠٩] ، وبعض الأزواج مريض بمرض الشك ، تعبث في عقله وفؤاده آفات الوساوس والارتياب ، الأمر الذي يحيل الحياة الزوجية إلى نكد لا يطاق ، وإلى هَمٍّ بالليل ، وعراك بالنهار ، والمسلم السوي التقي هو الذي أحسن الاختيار من البداية على الأسس الشرعية لاختيار المرأة المسلمة ، والتي

من أهمها : «إذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» . والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقطع على شيطان الشك والظن كل سبيل ، فإذا تسربت الوساوس والشكوك إلى النفس فلا يجوز أن يتحول الأمر إلى بحث وتقصٍّ ، لأن الغيرة «الحمراء» لا تجعل المرء يضع مشاعره في مسارها الصحيح ، فيذهب به خياله وشيطانه وغضبه الدفين إلى ما فيه تهلُكته ، فيقول النبي - صلى الله عليه وسلم - «إذا ظننتَ فلا تحقق» .

كما نهى - عليه الصلاة والسلام - عن اقتفاء أثر الوساوس والشكوك ، فقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم - نهى «أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم ، ويطلب عثراتهم» ، فلا يصح أن يسرف الرجل في غيرته على زوجته ، فيعد عليها أنفاسها ، ويتقصى كل حركاتها وسكناتها ؛ إذ إن البيت المسلم مصون بشرع الله مادام أهله قائمين على حدود الله ، لا انتهاك ولا تعدٍ ، والبيت المسلم الملتزم - مهما حاصرته المشكلات - فهي - بفضل الله - مشكلات بعيدة عن «حرمة الأعراض» ، إذ إن أهله مطهرون من مفاسد الجاهلية من عُري وتبذُّل واختلاط وتسيب ، بمعنى أنهم يعيشون في ظلال أخلاق الإسلام الكريمة ، فلا سبيل بعد ذلك للشكوك والظنون ، وإفساح المجال لإفساد العلاقة بسوء الظن و﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً﴾[يونس:٣٦] ، والله - جل وعلا - يغار على عباده ، فيشرع لهم ما يصون بيوتهم وعلاقاتهم الاجتماعية من مساوئ الأخلاق ، وغيرة الله - سبحانه - حق ، إذ يقول الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - : «إن الله يغار ، والمؤمن يغار ، وغَيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله» رواه البخاري.

ويقول أيضاً : «لا أحد أغير من الله - عز وجل - فلذلك حرم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل» رواه البخاري ومسلم ، وله - سبحانه - الثناء الحسن ، وكما يغار الرجل على أهله ، كذلك المرأة تغار على زوجها ، وقد تكون غيرتها مختلفة عن غيرة الرجل ، لأن المرأة عاطفية بطبعها : بمعنى أن عقلها محكوم - غالباً - بمشاعرها ، وهي في حاجة إلى تحجيم هذه المشاعر ووضعها في إطارها الصحيح - وأيضاً - بلا إفراط أو تفريط ، فالمرأة حين تغار على زوجها غيرة سوية معقولة

ينبغي أن تبحث في نفسها عن أسباب هذه الغيرة ، لتستفيد منها لصالحها ، وتجعل كما يقول المثل : «الكرة في ملعبها» ، والواقع أن «الغيرة» طبيعة في النساء ، ينبغي للرجال تقديرها ، والتعامل معها بواقعية ، فقد تغار المرأة من امرأة تُوفِّيت - إذا ذُكرت محاسنُها أمامها - أو تغار من صديقة لها لبِست ثوباً جديداً ، أو أُضيف لأثاث بيتها شيء نفيس ، وهذه غيرة طبيعية ، لا تُلام عليها المرأة إلا إذا خرجت عن حدها المعقول ، وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بتدخل القَدَر في تشكيل هذا الشعور لحكمة عليا ، فقال : «إن الله كتب الغيرة على النساء ، والجهاد على الرجال ، فمَن صبر منهن إيماناً واحتساباً كان له أجر الشهيد» (الجامع الصغير للسيوطي ١/ ١٢٠) .

ولعلنا نلمح من هذا الحديث قيمة هذا الأجر الكبير ، والثواب العظيم وهو «أجر الشهيد» للصابرات على شعور الغيرة ، وعلى غيبة أزواجهن لإعلاء راية الإسلام بالجهاد؛ إذ إن هذا الفضل العظيم يتناسب مع مهمة كبْح جماح الغيرة التي لو انفلت زمامها فقد تؤدي إلى فساد العلاقة الزوجية ، وانهيارها تماماً.

ومن نماذج الغيرة في البيت النبوي ما تحكيه لنا أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - عن إحدى تجاربها مع مشاعر الغيرة حتى دفعها ذلك إلى تتبُّع خطوات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو أشرف وأتقى خلق الله .

ولندعْ الصِّدِّيقة الصادقة عائشة تحكي لنا حكايتها ، حيث تقول : «دخل عليَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوضع عنه ثوبيه ، ثم لم يستتم أن قام فلبِسهما ، فأخذتني غيرة شديدة ، ظننت أنه يأتي بعض صُويحباتي (أي زوجاته الأُخريات) ، فخرجتُ أتبعه ، فأدركته بالبقيع يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فقلت : بأبي وأمي أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا ، فانصرفت فدخلت حجرتي ولي نفس عالٍ ، ولحقني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ما هذا النفس يا عائشة ؟ ، قلت : بأبي وأمي أتيتني فوضعت عنك ثوبك ، ثم لم تستتم أن قمت فلبِستهما ، وأخذتني غيرة شديدة ، ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي ، حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع ، فقال : يا عائشة ! أكنتِ تخافين أن يحيف عليك الله ورسوله؟!» .

والزوج الذكي الحصيف هو الذي يسارع لإطفاء نار الغيرة - إذا أُشعلت لأي سبب في نفس زوجته - بكلمة رقيقة تمتص غضبها ، وتطفئ نارها ، ولا يعجب الرجل ، فقد تهذي المرأة - أثناء غيرتها - بكلام وألفاظ لو قالتها - وهي في هدوئها -لعُوقبت على ذلك عتاباً شرعياً وأدبياً كبيراً ، ولقد ضرب لنا الحبيب الرسول - صلى الله عليه وسلم - أروع الأمثلة في تقديره لحالة المرأة إذا غارت ، والتماسه العذر لها ، حتى لو اقتربت في غضبها وثورتها من مناطق الخطر ، وعائشة - رضي الله عنها - وقعت في هذه الغيرة الشديدة ، فماذا فعلت ؟ ، وكيف كان تصرُّف الرسول - صلى الله عليه وسلم - معها ، وهي - أيضاً - التي ستحكي لنا حكايتها فتقول : «خرجت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع ، فأخرج معه نساءه ، وكان متاعي فيه خف ، فكنت على جمل ناج (أي قوي سريع) ، وكان متاع صفية بنت حُييّ فيه ثقل ، وكانت على جمل بطيء ، فتباطأنا ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «حوّلوا متاع عائشة على جمل صفية ، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة ليمضِ الركب» ، فلما رأيت ذلك قلت : لعبد الله ، غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : «يا أم عبد الله ! إن متاعك كان فيه خف ومتاع ، جمل صفية كان فيه ثقل ، فبطَّأ بالركب ، فحوّلنا متاعك على بعيرها ، وحوّلنا متاعها على بعيرك» ، قلت : ألستَ تزعم أنك رسول الله ؟! ، قالت : فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : «أفي شك أنت يا أم عبد الله؟!» ، قلت : ألستَ تزعم أنك رسول الله ؟ ، فهلا عدلت ؟! ، فسمعني أبو بكر - رضي الله عنه - وكان فيه ضرب من جِدّة ، فأقبل عليّ يلطم وجهي ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «مهلاً يا أبا بكر !» ، قال : يا رسول الله ! أمَا سمعت ما قالت ؟! ، فقال عليه الصلاة والسلام - : «إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه» رواه أبو يعلى وأبو الشيخ وابن حِبّان .

ومعنى هذا أن المرأة - في حالة غيرتها الشديدة - تفقد اتزانها النفسي والعاطفي بشكل تحتاج معه إلى لون خاص من التعامل ، ليستطيع الزوج أن يفوت على شيطانها تلك اللحظات الملتهبة وتعود بعدها إلى حالتها المعتادة .

العناد والجدال

ليست البيوت قاعات لإلقاء المحاضرات ، وعقد الندوات ، كما أنها لا تصلح أن تكون ساحات للجدال والمماراة ومحاولة انتصار رأي على رأي ، سعياً من خصم لإفحام خصمه ! ، وليس أسرع إلى تصدُّع الحياة الزوجية من التمادي بين الزوجين في نقاش طويل حول موضوع - أي موضوع - مهما كانت أهميته ، صحيح أن طرح الآراء وطلب المشورة - للوصول إلى نتيجة سديدة في الموضوع المطروح للمناقشة وأخذ الرأي - كل هذا أمر طيب وحسن ، لكن انتصار أحد الزوجين لرأيه ، أو تقديسه لوجهة نظره لا يعني أن يقيم الطرف الآخر «دنيا البيت» ولا يُقعدها - كما يقول المثل - فالعناد والتصلب في الرأي ، والجمود وعدم المرونة تضفي على الأسرة جواً خانقاً ، وتنشر في البيت ظلالاً قاتمة ، وتهيئ المُناخ لنفثات الشيطان وهمزاته ، مما ينذر بالاقتراب من الخطر ، فمراعاة كلا الزوجين لطباع الآخر ومحاولة التكيف والتفاعل مع ما يصعب تغييره - أمر يحتِّمه الوعي والذكاء «الزوجي» - إن جاز التعبير - والأزواج والزوجات حين يطرحون في مناقشاتهم خيارات لا بديل عنها إنما بهذا يضعون حياتهم الزوجية في مهب ريح عاتية توشك أن تقتلع هذه العلاقة من جذورها ، والمثل يقول : «العِنْدُ يورِّث الكفر !» .

ومن أمثلة العناد والمكابرة ما جاء في كتاب «خبرات الزواج السابق» لمحمد فصيح بهلول قوله عن أحد الأزواج : «وقف مرة يرن جرس الباب وهي بالداخل - أي زوجته - مستلقية على سريرها لا تفتح ، وحُجتها في ذلك أن معه مفتاحاً للباب ، فلماذا يرن الجرس ويزعجها بالنهوض لفتح الباب له أو استقباله ؟ ، وتعتبر ذلك منه نوعاً من الاستعباد لمجرد تسيُّد الرجل وسيطرته ، وظلت تهذي بهذه الضلالات المنكرة على الرغم من أنها رأته حاملاً - في كلتا يديه - بعض طلبات البيت من خبز وفاكهة وخلافه ، وأنه كان يستعين ببعض ما يتبقَّى له من أجزاء يده في رن الجرس ، وظلت

تبادله الحجة بالحجة ، وتجادله ، وتماريه - بغير حق - وتبادله كلمة بكلمة ، بأنه كان بإمكانه وضع ما معه على الأرض حتى يفتح الباب بالمفتاح ، ثم يحمل هذه الأشياء مرة أخرى ، فهل هذه زوجة تنشد الاستمرار والنجاح مهما كان زوجها صبوراً واسع الصدر ؟!» .

والجدال المرفوض شرعاً هو التمادي في الحوار دون فائدة ، فالمعنى الاصطلاحي لكلمة «جدل» يشير إلى فراغ مضمون المناقشة من شيء نافع يؤدي إلى نهاية حكيمة ، أو نتيجة مفيدة ، والجدل العقيم مأخوذ من «جدل» الخيط أي تشابك بعضه على بعض ، حيث لا يُعرف أوله من آخره ، ومن هنا فأي كلام أو مناقشة تأخذ هذا الشكل أو هذه الصورة من الحوار فإنه يجب شرعاً التوقف عنها ؛ لأن الاستمرار في الجدال على هذا النحو يشيع في نفوس المتجادلين روح التعالي وحب الظهور ومحاولة إثبات كل طرف لذاته ، ووظيفته اللسان - وهو آلة النطق في الإنسان - للتعبير عن احتياجاته ، وليس الهذيان «بالفارغ والمليان» والحديث النبوي يقول : «أنا زعيم بيت في وسط الجنة لِمَن ترك الجدال ولو كان محقاً» .

ولقد نعى القرآن الكريم على الإنسان هذه الصفة في قول الله - تعالى - : ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[الكهف:٥٤] ، والجدال يقسي القلب ، ويمرض النفس ، ويملؤها بالشحناء والبغضاء ، ويترك بين الناس رواسب كريهة ، والزوجة التي تجادل زوجها في كل شيء ، وتراجعه في الصغيرة والكبيرة بالحق والباطل ولا تنفذ له طلباً ، ولا تطيع له أمراً حتى تضعه على مائدة المفاوضات والمباحثات والجدل العقيم - هذه الزوجة تحول حياتها بهذا الأسلوب إلى جحيم ، والزوج الذي يستبد برأيه أو يسفه رأي زوجته - اعتداداً برجولته فقط - و يحول الصغيرة إلى كبيرة ، ويجعل من «الحبة قبة» ، ويفتح على امرأته باب الجدل الطويل على أي أمر - أياً كان هذا الأمر - هذا النوع من الأزواج يشكل - إن داوم على هذا الأسلوب - عبئاً نفسياً على أسرته .

يقول الأستاذ فصيح بهلول : «فالزوج الذي يتفرد برأيه مخطئ ، والذي يتخذ القرار غير الصائب لمجرد مخالفة رأي زوجته - وقد تبين له صوابها - هو رجل أحمق ، لا يقدر

المصلحة ، ويضع كبرياءه في غير موضعها ، ويحقق انتصارات زائفة ، لا مكان لها إلا في عقله هو دون أحد سواه ، كما أنه يفقد مكانته لدى زوجته» أ.هـ.

ثم يضيف قائلا ، «إن الملاحظ دائماً أن عناد الزوج يسبق عناد الزوجة ، فالأخير يأتي غالباً كرد فعل لعناد الزوج ، وتعليل ذلك أمر سهل ، فالزوج حين يحاول استرداد ما فقده من الوجهة المعنوية يبذل ما يستطيع من جهد لإثبات سيطرته وهيمنته بإلغاء ومحو أي رأي خلاف رأيه ، يضع الزوجة في موقف يحتم عليها أن تتخذ لنفسها موقفاً ، إما التصادم معه أو مهادنة هذا الموقف المستفز أو دفع الزوج لفتح باب الحوار معها ، فتأخذ شكل العناد السلبي لكسر صرامة رأي الزوج وتمييع قراراته ، كي تفتح ثغرة للحوار والمناقشة بأقل قدر ممكن من الخسائر !» أ.هـ.

الملل والفراغ العاطفي

ليست الحياة الزوجية حياة بين جسدين ، أو تعايشاً بين جنسين (ذكر وأنثى) ، بل هي - في المفهوم الصحيح للزواج - حياة بين قلبين ، امتلأ كل منها بحب الآخر ، والخوف عليه ، والرضا به ، والتكيف معه ، والاطمئنان لوجوده ، والشعور بافتقاد جزء منه إذا غاب ، وأروع ما في هذه الحياة هو ما عبر عنه خالق النفوس وبارئها - عز وجل - بقوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١] .

لكن قد تواجهنا مشكلة كبيرة - بعد مُضي فترة على الزواج - وهي الشعور بالرتابة والملل ، وجفاف نبع المودة شيئاً فشيئاً ، بما ينذر - إن لم يتدارك الزوجان هذا الأمر - بانكماش كل المعاني الحلوة ، والمشاعر النبيلة ، والتي تعتبر «مضخات عاطفية» في شرايين هذه العلاقة المقدسة ، وإذا كانت المسؤولية في دوام واستمرار العطاء النفسي والعاطفي تقع على عاتق كلا الزوجين ، إلا أن للزوجة هنا دوراً كبيراً وأساسياً ، لا يجوز لها إهماله أو التغاضي عنه ، أو محاولة إلقاء التبعة كلها على الزوج ، متعللة بأن زوجها «هو الذي تغير» ، و«هو لم يعد الزوج الذي عرفته في أول ارتباطها به» ، و«أنها قد خُدعت فيه» .. إلى آخر هذه المبررات الواهية ، والتي تمثل هرباً من مسئوليتها تجاه ذلك الأمر ، كما أنها تحتج بأنه لابد أن هناك سبباً أو عاملاً خارجياً وراء هذا التحول المفاجئ بعد ما كان «زوجي» مقبلاً بكل عواطفه نحوي !

إن الهروب من مواجهة هذا الفراغ ، والتملص من محاولة اكتشاف أسبابه يجعلك - أختي المسلمة ! - تسيرين قدماً نحو الفشل في استمرار هذه الحياة ، فتقوى الله - سبحانه - وابتغاء مرضاته في شريك حياتك هما من أعظم الدوافع التي تحثك على الانتصار على النفس والاستعلاء فوق «الأنا» الكاذبة، والتقوقع حول «الذات» مما هو من أمارات «فشل الزواج» ، فإذا شعرت من زوجك بشيء من الجفاء ، أو حتى أصابك

أنتِ شيء من ذلك فاعلمي أن حياتك النفسية والزوجية في حاجة ماسة إلى كسر هذا الجمود بشيء من المواجهة الصريحة .

تحكي زوجة مسلمة خبرتها في هذا الأمر فتقول : «تزوجنا منذ عشر سنين ، وكان الحب واللفة والمودة والرحمة هي الصفات والمشاعر التي يتحلى بها كل منا نحو الآخر ، مرت بنا مشكلات كتلك التي يواجهها أي زوجين ، ولكن بشيء من الحكمة والحب والتفاهم كنا نتغلب عليها ، لكن منذ فترة أحسست في نفسي بشيء من الرتابة يسيطر على حياتنا ، قاومت هذا الإحساس ، حاولت تجديد حياتي مع زوجي بالبحث عن مواطن الخلل في نفسي ، ومحاولة اكتشاف صفات أخرى طيبة في شريك حياتي ، لم أكن أقدر على مواجهة زوجي بتلك المشاعر ، لكنني شعرت - أيضاً - بشيء من الجفاف يزداد يوماً بعد يوم في علاقة زوجي بي ، وهنا قررت المواجهة ، مواجهة نفسي ، ومواجهة زوجي ، أتيته وهو متكئ على كرسيه ، وقد أطرق واجماً ، وكأنه يحمل فوق رأسه جبلاً من الهموم والأحزان ، ألقيت السلام ، جلست بين يديه ، كسرت جدار الصمت ، قلت له : أتذكر منذ كم سنة تزوجنا ؟! ، رد - وقد كست وجهه علامات التعجب - : ولماذا تسألين هذا السؤال الآن ؟! ، قلت : أرجوك أخبرني ، قال : منذ عشر سنوات تقريباً ، قلت - وعلى ملامحي ابتسامة راضية - : أليست هي نعمة كبيرة من الله أن يعيش الإنسان كل هذه الفترة في سعادة مع مَن يحب ؟!» .

تقول هذه الزوجة : «فما أن أنهيت عبارتي حتى أمسك يدي في رفق وحنان ، وهو يقول : «من زمان لم أسمع منكِ هذا الكلام الجميل يا أحب إنسانة إلى قلبي !» .

إن الفتور والرتابة آفتان خطيرتان ، لا يصح تركهما يعبثان بالحياة الزوجية ، ولا ينبغي الاستسلام لهذا الوضع ، فليس السكوت دائماً - وفي كل الأحوال - علامة على الرضا بالواقع ، بل إن التكيف مع وضع مؤلم وكئيب لا يحقق - في الغالب - نتائج إيجابية ، فالصمت الدائم - مع غليان الصدور - ينذر بانفجار الوضع في أي لحظة ، وربما لأسباب تافهة ، والحل هو محاولة «التجديد النفسي» والظاهري بدون تكلف أو افتعال لبثّ الروح مرة أخرى في جسد هذه العلاقة ، وأساتذة «علم النفس» يحذرون

من خطورة الشعور «بالفراغ العاطفي» على الحياة الزوجية ، ويؤكدون على أنه نتيجة طبيعية لداء آخر اسمه «الملَل» !

يقول الدكتور يسري عبد المحسن : «ومن التجارب في مجال العلاج النفسي الأسري والعلاج النفسي للزوجين - تبين أن نسبة لا تقل عن ٦٨٪ من الخلافات والصراعات الزوجية يرجع سببها إلى هذه الآفة اللعينة ألا وهي «الملل» ، وأذكر من ذلك حالة العروسين حديثي الزواج عن حب واقتناع وتفاهم وتوافق كامل ، وكان الزوج هو الذي يشكو مثالية زوجته في كل شيء ، حتى نظام حياتها اليومي ، لدرجة أنه أصبح يمل ويسأم هذا الروتين القاسي ، بالرغم من أن زواجهما لم يمر عليه أكثر من عامين ، وحالة أخرى اشتكى منها الزوج المريض بالقلق النفسي الشديد وعدم قدرته على التكيف مع الحياة الزوجية ، بعد أن ظل يقاوم ويحاول سنوات طويلة دامت ثلاثة وعشرين عاماً أصبح فيها أباً لثلاثة من الأبناء ، ومن خلال مقابلة للزوجة ، وعمل الجلسات النفسية مع الزوجين في وقت واحد - تبين أن الزوجة مصابة - أيضاً - بدرجة من الاكتئاب النفسي الناتج عن روتين الحياة المتكرر ، والذي لا يتغير ، حتى أصبحت لا تعرف للدنيا طعماً ، وقالت بالحرف الواحد : «اللي نِبَاتْ فيه نِصْبَحْ فيه!» ، ويبدو أننا خُلقنا لنتعذب ، دون أي لذة أو متعة ، والهدف أولاً وأخيراً هو الشقاء ثم الموت» أ.هـ.

وبعد ما عدَّد لنا الدكتور «يسري عبد المحسن» كثيراً من الحالات الزوجية المشابهة خلص إلى هذه النتيجة ، حيث يقول : «كل هذه الأمثلة وغيرها دفعتني إلى التوصل إلى أن المشكلة في جوهرها تتوقف على «الملل» ، ودفعتني أيضاً إلى الدعوة للقضاء على هذه الآفة الزوجية بمحاولة الزوجات - وهن «دينامو» الحياة الزوجية - التغيُّر المستمر حتى تظهر كل يوم بشكل جديد .. والشكل هنا لا يعني المظهر المادي فحسب ، بل والمعنوي أيضاً ، فيمكن للزوجة أن تسعى دائماً إلى خلق جو متجدد دائماً في الأسرة ، فيمكنها أن تخلق جواً من الحديث الجديد كلما أُتيحت لها فرصة التحدث مع زوجها ، بحيث يكون هناك تنوُّع في أسلوبها في الحديث ، وموضوعه يكون فيه شيء من الإثارة

والاشتياق لسماعه والاستمرار فيه ، وهذا يعتمد - وبلا شك - على درجة ثقافتها وعلى لباقتها ، فتزيح عنه كابوس «الملل» ، وينبغي أن تكون لديها القدرة على أن تظهر مع كل موقف مناسب بالصفة والعادة والسلوك المناسب ، وهذا ما يجعل منها امرأة متغيرة متجددة أمام زوجها ، وبقدر ما تغير الزوجة نفسها بقدر ما هو مطلوب منها تغيير ما حولها ، ويُقصد بذلك نظام وترتيب حجرات المنزل ، ووضع اللمسات الرقيقة على الأثاث ، وكذلك تغيير أماكن الأثاث من وقت لآخر إن أمكن» انتهى .

الإهمال والفوضى

من أهم الدوافع التي تجعل الزوج مقبلاً على زوجته ، محباً لها ، مشتاقاً إلى رؤيتها دائماً ، أن تكون - بعد حسن الخلق - متزينة متجملة مستعدة لاستقباله في أحسن صورة ، وأطيب مظهر ، ويبدأ جمال المرأة باهتمامها المتواصل بنظافة نفسها وبيتها ، وحرصها على أن تكون هي «ريحانة» البيت ، توفر لأسرتها أسباب الراحة والهدوء والسعادة النفسية ، واهتمام المرأة بالنظافة يرجع في جزء كبير منه إلى فهمها لدينها والتزامها بتعاليمه ، فضلاً عن كَوْن النظافة تربية وتعوُّداً في المقام الأول ، وكلا الأمرين دعا إليه الإسلام ، وحث عليه المسلمين والمسلمات ، والقرآن الكريم ينص صراحة على حب الله - تعالى - لأهل الطهارة والنظافة بنوعيهما (الباطن والظاهر) ، فيقول المولى - عز وجل - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] ، ويقول - جل وعلا - : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١] ، ورسولنا - صلى الله عليه وسلم - يقول : «الطهور شرط الإيمان» .

والجمال والنظافة وكل طيب هو من الأشياء والصفات التي يحبها الله - تعالى - ويُثيب فاعلها والحريص عليها ، يقول النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - : «إن الله جميل يحب الجمال ، نظيف يحب النظافة ، طيب لا يقبل إلا طيباً» ، والمرأة المثالية تعمل دائماً على أن تسكن في قلب زوجها وعقله بحرصها على التجمل والتزين له ، وعليها أن تعلم أن النظافة أبقى لها من الجمال ، فجمال الوجه ونضارة الجسد تأكل منهما الأيام والسنوات رويداً رويداً ، ويبقى منها عِشرتها الطيبة ، ورائحتها الزكية ، وثيابها النظيفة ، ولمساتها الرقيقة على أركان عُشها الجميل ، والمرأة التي تظن أنها - بعد الزواج - قد وضعت زوجها في «جيبها» ، وأنها طوّقته من رقبته بالأولاد ، ولم يعد في استطاعته أن يفلت من شِباكها ، فلا عليها أن تهتم بمظهرها ورائحتها ، ولا تبالي أن تستقبل زوجها «شَعثاء» «منكوشة الشعر» ، أو تعصب رأسها بإهمال ، تفوح منها رائحة

الطبخ ، وبُقع الطعام دوائر مستديرة تزين ثيابها !! - هذه المرأة - بكل أسف - تنزع من قلب زوجها أزاهير الحب والمودة ، وتقطف من فؤاده ورود الألفة والعشرة الطيبة ، أو تتركها تذبل ، لأنها أهملتها ، ولم تعد تقدم لها ما يحفظ لها حياتها وبقاءها خضراء نضرة في قلب زوجها المسكين ، حتى يصل الأمر بهذه العلاقة المهددة بالبوار والتلاشي أن يرى الزوج زوجته أو ينظر إليها - وإن لم يعلن ذلك - شيئاً من الأشياء التي تملأ فراغات البيت !

يقول صاحب كتاب «العشرة الطيبة مع الرجل» - وهو ينصح الزوجة المسلمة - : «احرصي أن تكوني أنثى ، وعلى الفطرة التي فطر الله عليها النساء من حب الجمال والتجمل ، والتجمل فن من فنون المعاشرة الزوجية ، وأظنك - أيتها الأخت الفاضلة ! - أنك كنت حريصة على ذلك منذ عقد عليك زوجك ، حتى لا تقع عينه إلا على ما يرضيه ، ويزيده رغبة ، وتعلقاً بك ، وأنتِ تعلمين أنه يحب ذلك ، وقد يصرح بذلك ، وقد يسكت عن غير رضا منه ، فهل تظنين أنه لم يعد له عين تحب أن ترى ذلك منك؟ ، وهل بتركك للتزيُّن له تضمنين أنه لم يعد يرغب في أن يرى امرأة ذات زينة ؟! وهل تضمنين - على الرغم من كل شيء جميل منك وفيك - أن رغبته من ذلك ماتت أو ضعفت ؟ ، مهما كان الأمر أنت واهمة ، إن لم تتزيني له ، إن قلبه لم يتغير ، وأنه راضٍ كل الرضا» انتهى .

والشيء العجيب أن تتهم بعض الزوجات - المهملات في أنفسهن - يتهمن أزواجهن إن أعرض عنها ، أو فكر في الارتباط بغيرها ، فتقول «أصله عينه فارغة» !!

وأنا أقول للزوجة المهملة حاملة هذا الشعار - عينه فارغة - أقول لها : لقد أصبت عين الحقيقة ، فزوجك حقاً «فارغ العين» ، لأنه لم يجد بجواره أو أمامه زوجة تملأ هذا الفراغ !

لقد كان النساء يترددن على الصِّديقة بنت الصديق - عائشة رضي الله عنها - ، يسألنها عن أمور تتعلق بشئونهن ، فكانت إجاباتها دائماً غاية في الفهم والوعي

والجمال ، ومن ذلك أن بكرة بنت عقبة دخلت على عائشة - رضي الله عنها - فسألتها عن الحناء ، فقالت : شجرة طيبة ، وماء طهور ، وسألتها عن الحفاف ، فقالت : إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعيها أحسن مما هي فافعلي . رواه مسلم

هذه نصوص واضحة وقاطعة تبين لنا أن نساء الصحابة - وهن من أقرب النساء إلى الله تعالى - فطنّ ووعين هذا الأمر ، وحرصن عليه امتثالاً لما أمرهن به الأسوة الحسنة - عليه الصلاة والسلام - فعن جابر بن عبد الله : وقدم علي بن أبي طالب من اليمن ، فوجد فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - ممن حل ، ولبست ثياباً صبيغاً ، واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : إن أبي - صلى الله عليه وسلم - أمرني بهذا .

وتقول عائشة - رضي الله عنها - : « كانت امرأة عثمان بن مظعون تختضب وتطيّب ، فتركته ، فدخلت عليّ ، فقلت لها : مالكِ ؟ ، فقالت : عثمان لا يريد الدنيا ، ولا يريد النساء» .

وقد ظن عثمان - رضي الله عنه - أن من الزهد إهمال الزوجة وعدم الالتفات إلى تزيُّنها وتجمُّلها ، وهذا أسلوب صعب يؤثر في نفس المرأة تأثيراً شديداً ، وقد يجرح كرامتها ، ويخدش أنوثتها ، ولذلك يجب على الزوج ، بل من علامات فطنته وذكائه وفهمه لطبيعة المرأة - أن يقدر زينة المرأة ، ويتجاوب مع ذلك ، إذ إن اهتمامها بنفسها في بيتها - علامة على اهتمامها وحرصها على جذب زوجها إليها ، ولهذا بيَّن النبي العظيم - صلوات الله وسلامه عليه - لعثمان بن مظعون - وهو من خيرة الصحابة أن التغاضي عن الزوجة وزينتها لا يدخل إطلاقاً في إطار الزهد والانصراف إلى أعمال الآخرة .

ففي رواية للطبراني عن أبي موسى الأشعري «.. فلقيه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : «يا عثمان أمَا لك فيّ أسوة ؟! .. وإن لأهلك عليك حق» ، وسارع عثمان - رضي الله عنه - إلى تنفيذ وصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له ، ففي

بقية الرواية السابقة «.. فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس ، فقلن : مَهْ (وهي كلمة اندهاش وتعجب) ، قالت : أصابنا ما أصاب الناس» .

أما تزيُّن الرجل لامرأته فقد ضرب لنا فيه سيد العالمين - صلى الله عليه وسلم - أروع الأمثلة . فعن البراء بن عازب قال : «رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - في حُلة حمراء لم أرَ شيئاً قط أحسن منه» رواه البخاري ومسلم .

وعن عائشة أنها كانت تطيب النبي - صلى الله عليه وسلم - بأطيب ما تجد . رواه البخاري ومسلم ، وما أجمل فهم ابن عباس - رضي الله عنهما - لهذا إذ يقول : «إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي ، لأن الله - تعالى ذكره - يقول : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨]» .

الاغتصاب الحلال !!

الغصب أو الاغتصاب لأرض أو لمال ، أو لأي شيء ليس ملكاً للإنسان هو أمر محرم شرعاً ، قال تعالى : ﴿ومَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران :١٦١] ، و«الاغتصاب» كلمة شاعت في الآونة الأخيرة ، وأطلقت على تلك «الحوادث» التي يقوم مرتكبوها بخطف فتاة أو امرأة من الطريق العام - مثلاً - والاعتداء عليها جنسياً وبدنياً ، ولا يشك عاقل في أن مثل هذه الجرائم يستحق مرتكبها أشد وأقصى أنواع العقوبة ، لكننا - هنا - نتكلم عن لون آخر من ألوان «الاغتصاب» ، لا نستطيع أن نعطيه حكم «الحرام» ، لأن أصله «حلال» ، لكن المنع الشرعي من فعله جاء مرتبطاً بالجو أو الحالة التي يتم خلالها «اللقاء الجنسي» ، فهو ليس بين رجل غريب وامرأة غريبة لا تحل له ، بل هو بين زوج وزوجة ، جمع بينهما عقد شرعي صحيح ، وهنا - كذلك - قد يتبادر هذا السؤال وكيف تسمي «لقاءاً جنسياً» بين الزوجين «اغتصاباً» ؟!

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال يعود بنا الحديث إلى طبيعة العلاقة الجنسية بين الزوجين ، وهل لهذه المسألة صلة بالحب ؟ ، أم هي عملية جسدية لا تعرف إلا لغة الأعضاء ، ولا دخل لها بعالم المشاعر والأحاسيس ، ولنطرح السؤال بشكل آخر : هل الحب عملية خاصة بالمشاعر ، والجنس عملية تخص الجسد فقط ؟ ، أي هل هما عمليتان منفكتان مستقلتان ، أم أن لكل منهما صلة بالآخر ؟ .

والإجابة عن هذا التساؤل نتركها «لعلم النفس» فيقول الدكتور «يسري عبد المحسن» : «غريزة الجنس فطرية ، يولد بها الإنسان والحيوان ، وتحركها دوافع بيولوجية وفسيولوجية ، هدفها الحفاظ على السلالة البشرية أو الحيوانية من الانقراض ، ومتابعة التوالد من جيل إلى آخر .. فالسعي وراء الجنس يحدث نتيجة لعوامل الطاقة الكامنة داخل الفرد ، والتي لابد لها من مخرج ، وتحكمها - أيضاً - دوافع الإبقاء على الجنس

البشري ، وبهذا الدافع الغريزي تتغير الهرمونات ، وتتحرك الأعضاء ويتأثر الجسم عموماً ، والحب هو الشحنة العاطفية الإيجابية الكامنة في الإنسان والتي تتمثل في قدرته على العطاء بلا حدود ، عطاء غير مشروط لا تحكمه قوانين ولا يرتبط بمقابل ، وتتمثل هذه الشحنة العاطفية في قدرة الفرد على الأخذ أيضاً ، أخذ كل ما هو ضروري لبناء ونضج النفس ، لتكون قادرة على العطاء ، والأخذ والعطاء يمثلان قدرة الإنسان على التعامل مع بيئته الاجتماعية ، ومن خلال هذا التعامل المتكامل تسمو النفوس وتعلو المُثُل والقيم . . » ، ثم يضيف قائلاً : «وعلاقة الحب بالجنس تتحدد بالدوافع التي تحرك كلاً منهما ، فالجنس يتحدد بدوافع فسيولوجية حيوية ، والحب يتحرك بدوافع اجتماعية بيئية ، ونظراً لأن الجنس أهم من الحب من الناحية الحيوية لبقاء الجنس البشري - فإنه لا غِنى عنه في علاقة الذكر والأنثى ، بشرط أن تكون هذه العلاقة مشروعة من خلال الزواج ، ولكن لابد أن تتخلل هذه العلاقة المودة والرحمة ، وهو الجانب العاطفي المعنوي لها ، والذي يقابل الجانب الجسدي المادي ألا وهو الجنس ، وكل من الحب والجنس يكمل الآخر ، ويعمل على نموه ووضعه في إطاره ومكانته الصحيحة ، الجنس يسمح بالالتصاق الجسدي ، والحب يجعل من هذا الالتصاق معنى ومنزلة رفيعة سامية ، تحقق له التفاعل المتبادل بين الطرفين بغرض الانسجام والمتعة التامة ، والحب يذيب الفوارق وينهي الخلافات ، ويقدم التنازلات بين الطرفين ؛ وبذلك يجعل من الوظيفة الجنسية طعماً خاصاً ، حيث تتم في جو من العطاء الثنائي ، والذي يسمح لكل طرف أن يمتع الطرف الآخر بقدر ما يستمتع هو من علاقته» انتهى .

إذاً فالحب يجعل من اللقاء الجنسي بين الزوجين لقاءاً توحدياً ، اندماجياً ، كيانياً ، أي يصير كلاهما الحقيقة الإنسانية الواحدة ، فنقسمه إلى نصفين ، لا معنى لأحدهما بدون الآخر ، فللكلام بينهما بريقه ، وللصمت دفئه ورصانته ، وللإشارة جمالها وجاذبيتها ؛ ومن هنا تتحقق لتلك العلاقة أسمى أهدافها ، وأروع مراميها ، وتكون السعادة والاستقرار والتوازن النفسي والاجتماعي هي أنضج ثمراتها ، وحول هذا المعنى - أيضاً - يقول الأستاذ عبد الحليم أبو شقة - رحمه الله- : «الحب في الزواج جزء من كل ، فإذا كان الزواج معناه تبادل الحب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١] ، فالحب

يتبعه الوفاء والصحبة الطيبة ، والمشاركة الحياتية الكاملة ، والامتداد الحي في الأبناء زهرات الحياة ، وهذه المعاني الكريمة تجمعها كلمة واحدة هي (السكن) ، ذلك التعبير البياني القرآني الرائع ، والمتعة الجنسية - وهي إحدى ثمرات الزواج - تشملها كل هذه المعاني ، وتسمو وتزكو وتحلو بفضلها ، ثم إن هذه المعاني تتوثق وتتأكد بفضل المتعة الجنسية ، وهكذا يكون التفاعل الإيجابي المثمر بين الجزء والكل ، بين الفرع والأصل . أما الاستمتاع خارج الزواج فهو متعة لحظة أو لحظات منقطعة عن الحب وعن الحياة ، وشهوة خالصة تتم بين أي ذكر وأية أنثى ، فمهما تباعدت لغاتهم - فضلاً عن أديانهم وأخلاقهم ، ودون أي تعارف بينهم - فهي لا تعدو أن تكون شعلة في عود سرعان ما تنطفئ . إن المباشرة الزوجية نعيم حقاً ، ولكنها مع النعيم مسئولية تليق بالشرفاء ، نعم قد يحدث أن يتلألأ الحب حيناً مع قلة اهتمام بفنون المتعة الجنسية ، وقد يحدث أن يزيد الاهتمام بفنون الاستمتاع مع حب فاتر ، لكن هذا خلاف الأصل ، فإن الحالة السوية الواعية الناضجة تطّرد فيها عادة العلاقة بين الحب والاستمتاع ، يزهوان ويزدهران معاً ويفتران ويهبطان معاً . وعلى ذلك فنحن حين نحض الزوجين على التفنن في الاستمتاع ، نكون ساعين في طريق توثيق عُرى الحب بينهما» انتهى .

إن إتمام اللقاء الجنسي بين الزوجين في ظلال الحب والألفة والتفاهم يحقق البعد النفسي المطلوب من هذه العلاقة المقدسة ، أما إذا تم في جو من المشاكل والمشاحنات والتنافر فإنما يجرد الزواج - بمفهومه العميق والنبيل - من أنضج ثماره ، وأنضر أوراقه ويُبقيه شجرة جرداء في مهب الريح العاصف ، إن هبت عليها ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦] ، وأقبح صورة لهذا السلوك الخاطئ أن يجذب - مثلاً - رجل زوجته ليضاجعها كالمغتصب ، بينما هو من لحظات قليلة قد أوسعها سباً وشتماً وإهانة ، ويزداد الأمر بشاعة حين يضرب الرجل زوجته ، ثم تسمح له نفسه الجافة أن يُكرهها على جماعها قبل أن يزيل أسباب النزاع والشجار ، ويمسح من قلبها آثار الخلاف والشقاق ، ولا نجد أروع ولا أحكم من قول نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم : «أمَا يستحي أحدكم أن يضرب امرأته ؟ ، يضربها أول النهار ، ثم يجامعها آخره !!» .

التهديد بالطلاق

الطلاق كلمة تهتز لها - حزناً - قلوب المصلحين ، وترتجف لها نفوس الراشدين ، يفرح بوقوعها الشيطان ، ويهتز لها عرش الرحمن ، أسرة .. زوج ، زوجة ، أبناء كانوا يعيشون جميعاً تحت سقف واحد ، يركبون ظهر الحياة بكل ما فيها من أفراح وأحزان ، آلام وآمال ، سعة وضيق ، أب يعود من عمله فيجد شريكة حياته في استقباله ، وأبناؤه يلتفون حوله ، ضحك ، لعب ، حوار ، تأديب ، عقاب ، ثواب ، حياة تدب في أوصالها الحياة بكل ما فيها من روح الحياة ثم .. ويا ويح «ثم» ! .. يحدث الخلاف ، ويقع الشقاق ، تتنافر الأرواح ، تتباعد القلوب ، تمتلئ النفوس بالغضب ، ينفخ الشيطان في تلك النار فتزداد اشتعالاً ، زوج غضبان ، زوجة تبادله غضباً بغضب ، العناد ، الكرامة ، الرجولة ، الكلمات الجارحة ، التعبير ، اللسان المنفلت ، لن أتنازل عن حقي (الزوج) ، وأنا كذلك (الزوجة) . الطريق المسدود .. هيا بنا إلى المأذون !!

أفكر كثيراً ، وأردد في نفسي : لماذا لم ينزل القرآن الكريم بسورة تحمل اسم «سورة الزواج» ، وإنما جاء بسورة تحمل اسم «سورة الطلاق» ؟! ، ثم اهتديت - والله أعلم بمراده - إلى أن الزواج هو الطريق الممهد ، طريق الفطرة السوية ، هو الشارع الواسع المسموح بالسير فيه دون عوائق أو موانع ، ومع ذلك حمل إلينا الكتاب والسنة الكثير والكثير من الإرشادات والتوجيهات والتنبيهات لضمان السير في الطريق المستقيم ، الذي يضمن دوام هذه العلاقة «المقدسة» على الوجه اللائق ، وجاء القرآن الكريم بسورة «الطلاق» كعلامة حمراء تشير إلى الخطر ، وكإشارة تحذير من المرور بهذه «المنطقة الحمراء» ، إذ الاقتراب منها يمثل موت هذه العلاقة وتلاشيها ، فإن كان لابد للأزواج من المرور بها فليمروا وبين أيديهم التنبيهات القرآنية التي حملتها هذه السورة الكريمة «سورة الطلاق» وغيرها مما جاء في ثنايا الكتاب العزيز والسنة المطهرة كضمان للمرور بسلام دونما الوقوع في هاوية سحيقة من غضب المولى - تبارك وتعالى - ولا أدَّعي هنا أن كلامي هذا لتفسير مفهوم الطلاق وحكمته يأخذ شكل الافتئات على شرع الله أو

التقديم بين يدي الله ورسوله ، فمعاذ الله أن أفعل ، بل هي خاطرة وردت لي ، وأنا بصدد الحديث في هذا الموضوع ، وتبقى الحكمة العليا عند العزيز الحكيم ، وتدوم الكلمة للشرع الكريم ، وعن ذلك يقول الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق : «مما لا شك فيه أن الطلاق عملية هدم لبناء أسرة ، وقد يأتي هذا الهدم عند بداية الطريق ، وعند أول اللبِنَات في الأساس ، وقد يأتي متأخراً بعد أن يكون البناء قد تفرع ، وتعددت الحجرات ، ووُضع السقف ، أعني بعد النسل وكثرة الأولاد ، والذين ظنوا أن الإسلام أباح الطلاق مطلقاً بلا ضوابط - وفتح للناس الأبواب على مصراعيها في أن يتزوجوا كما يشاءون ويطلقوا وقتما يشاءون - أخطأوا وتجنوا على هذا الدين ، وكذلك الذين يريدون حجر الطلاق ومنعه وتقييده بغير الطرق الشرعية - ظناً منهم أن ذلك عمل إنساني ، وأنه في صالح المرأة - فهم أيضاً جاهلون ، فالعدل في هذه المسألة هو ما جاء به الدين الصحيح بلا إفراط ولا تفريط» انتهى .

إذاً فأمر الطلاق مضبوط ومحكوم بإطار شرعي ، لا يتسرب منه ما يسبب الأضرار أو يُحدث شرخاً في جدار هذه العلاقة ، أما أن يُستخدم هذا الحق - حق الطلاق - كسلاح يشهره الزوج من حين لآخر في وجه زوجته تهديداً لها ، وإشعاراً لها بأنها أسيرة لكلمة يملكها الرجل ، فنقول - وبناءاً على نماذج عديدة في الواقع الإسلامي المعاش - إن التهديد الدائم بالطلاق يؤدي في - غالب الأمر - إلى أحد أمرين ، أحلاهما شديد المرارة ، الأمر الأول هو أن يسيء الرجل استخدام حق كلمة الطلاق ، فيربط بها أفعال زوجته - أمراً ونهياً - بمعنى أنها تفعل هذا ، أو لا تفعل ذلك تحت التهديد بالطلاق ، وهذا هو الخطأ والخطر في آن واحد ، فليست كل النساء - بالطبع - على المستوى النفسي الذي يجعلهن يُطعن الأوامر أو ينتهين عن النواهي تحت تهديد هذا السلاح - سلاح الطلاق - فقد تستبد بالمرأة كرامتها ، أو يسيطر عليها الحرج في موقف ما فلا تملك إزاء ذلك إلا طاعة زوجها وإنفاذ كلمته أو إبرارها ليمين الطلاق ، وخصوصاً إذا كان الرجل سيئ التقدير للمواقف ، بمعنى أنه يُحمّلها فوق طاقتها . كأن يهددها بالطلاق إذا قامت - مثلاً - بزيارة أمها المريضة ، أو أبيها الذي اشتاق لرؤيتها ، فإذا بالزوج يضعها في موقف أو مأزق صعب ، فهي إما أن تطيع زوجها خوفاً من «خراب

بيتها» ، وإما أن تلبي نداء عاطفتها ورغبتها في زيارة أهلها ، فتقع في صراع نفسي لا يعيش البيت - غالباً - بسببه في صفاء واستقرار ، لأنها أطاعت أمر زوجها على كُره و مضض ، الأمر الآخر أن تكون الزوجة من الصنف الذي لا يفيق - في الغالب - إلا على «كارثة» ، فإن كان زوجها ممن يسيء استخدام حق الطلاق بالتهديد الدائم به رغبة منه في دفع امرأته لطاعته وتنفيذ أوامره ، فالمرأة العنيدة بطبعها لا يرهبها هذا التهديد ، بل ربما زاد من عنادها واعوجاجها وتمردها ، والنتيجة المترتبة على ذلك هي أن يقوم الرجل بإنفاذ طلاقه حتى لا تقع كلمته وهيبته على الأرض ! ، أو أن يتراجع عن تهديده بالطلاق أمام عنادها وصلابة رأسها ، وكلتا العاقبتين شر ، ففي الأولى انهيار للعلاقة الزوجية وخراب للبيت المسلم ، وفي الأخيرة امتهان لكرامة الرجل وكشف لنقطة ضعف كبيرة في شخصيته ، واهتزاز لصورته في نظر زوجته ، إذ بإصرارها وتراجعه تكون قد كسرت هي سلاحه الذي طالما أساء استخدامه بالحق وبالباطل ، ، وكما يقول المثل القديم : «على نفسها جنت براقش !» .

إن الطلاق - عموماً - حكم من أحكام شرع الله تعالى ، لا يجوز التلاعب به أو استخدامه لغير هدف شرعي أو اجتماعي ، وفي هذا المعنى يقول القاضي الشيخ محمد كنعان في كتابه «أصول المعاشرة الزوجية» : «إن الطلاق ليس للتسلية ، ولا لتنفيس الغضب كما يفعل بعض الأزواج الجهلة ، الذين يوقع أحدهم «الطلاق» على الزوجة عند أي خلاف أو غضب ، فتثور عصبيته الحمقاء فلا يرى مهدئاً لها سوى «الطلاق» ، أو يريد فرض رأيه على زوجته ، وإرغامها على فعل ما يريده ، فيحلف عليها يمين الطلاق معلقاً ، مثل : إن فعلت كذا أو ذهبت إلى بيت كذا فأنت طالق ، فهؤلاء أساؤا استعمال حق التطليق الذي جعله الشرع بيد الزوج لإزالة عصمة النكاح عند وجود الحاجة لا تبعاً للهوى واستجابة للنزق والجهل والانفعال ، وجعلوا من «الطلاق» وسيلة إرهاب وابتزاز ، خلافاً لحكمة الشرع الحنيف الذي جعل الطلاق علاجاً لمعضلة «الخلاف» بين الزوجين ، لا سبباً لمعضلات أخرى» ، ثم يضيف قائلاً : «وهنا نوصي الأزواج ، ونذكرهم بتقوى الله - عز وجل - وبأن يرعوا حدود الله -تعالى - فيما شرع من أمر الطلاق ، فلا يجعلوا «الطلاق» ألعوبة على ألسنتهم ، أو وسيلة تهديد وإرهاب

للزوجة ، ولا يتلفظوا بالطلاق إلا حين الرغبة في التفرق ، وإنهاء الحياة الزوجية ، ويتأكد أن يحصل التطليق ويسجل في «المحاكم الشرعية» ، لأنه أضمن للحقوق وأحفظ وأثبت» . انتهى .

وفي إجابة عن سؤال يتعلق بأمر الطلاق عموماً وحكمة الإسلام في تشريعه يقول الدكتور عبد الستار حامد في كتابه «واقعية الإسلام بين العزوبة والطلاق» : «إن الإسلام لما كان ديناً واقعياً فإنه أسس نظام الطلاق على أنه علاج لا عقوبة ، وإصلاح لا تخريب ، لأن الغاية التي يهدف إليها من الزواج في تشريعه ضمان بقاء الحياة الزوجية بعيدة عن رياح الفرقة ما أمكن ، بُغية التناسل وبقاء النوع الإنساني ، فإن استحال ذلك كان الفراق هو العلاج الوحيد ، حيث لا علاج بسواه ، ولا إصلاح يتم بدونه عند استحكام النفرة ، حيث لم يكن بد أمام هذه المشكلة الاجتماعية - إذا تحدد موطن الداء - إلا أن يصف له الدواء ، فيصبح الطلاق في هذه الحالة ضرورة لابد منها ، ومن المعلوم لدينا أن حالة الضرورة إذا قِيست بالحالات الاعتيادية كانت نسبتها ضئيلة جداً لا تساوي ١٪ ، وهكذا فالطلاق في واقعية الإسلام - إذن - ضرورة توجبها الحياة الزوجية إن لم يستقم أمرها وغدت نقمة بعد أن كانت نعمة ، وتأكد الزوجان وذوو الإصلاح أنه لا سبيل لاستمرارها لاستحكام الشقاق ، وتنافر القلوب إلا بارتكاب الآثام ، ومعصية أوامر الله ، والخروج على نواهيه» . انتهى .

ويقول صاحب كتاب «الخلافات الزوجية في ضوء الكتاب والسنة» : «ويبقى الطلاق دواءاً مر المذاق وجراحة موجعة ، ولكن مَن الذي يلغي التداوي كراهة المرارة أو يحرم الجراحات كراهة الآلام والمصائب ؟!

لابد في شريعة العقل من الدواء ومن الجراحة ، وما دمنا نعيش في عالم فيه فساد وصواب وخطأ ، وصحة ومرض ، وحكمة وحماقة ، وحيث لا عصمة لبشر، فكان لابد في الإسلام - بمنهجه التوافقي - من وسيلة لتدارُك الأخطاء ، وإعطاء الفرصة لبني آدم وبنات حواء كي يبدأوا من جديد بناء سعادتهم في الدنيا بإقامة أركان أسرات سليمة الصرح ، يعمرها الأمن والمودة والرحمة» . انتهى.

التهديد بالزواج !

ما من امرأة في الدنيا تحب أو ترغب في أن يتزوج زوجها بامرأة أخرى وهي في «عصمته» ، بل هي في الغالب ربما تفضل أن يفارقها زوجها بالطلاق ، ولا يتزوج عليها ، تلك طبيعة نسائية ينبغي التسليم بها ، والتعامل معها بواقعية . وليس من الحكمة التصادم معها ، أو محاولة تغييرها .

ومن غرائب أمر النساء أن توافق إحداهن أن تكون زوجة ثانية ، لكنها في ذات الوقت - تحب أن تكون هي المحظية والمفضلة عند زوجها ، ولا يسعدها - كذلك - أن يفكر زوجها في غيرها . والمرأة عموماً تود لو ظل زوجها في قفصها ، وأن تكون - هي وحدها - التي تملك مفتاح هذا «القفص» ، ويزداد هذا الشعور - قطعاً - إذا قامت هذه العلاقة على الحب والود .

إن التعامل مع «مشكلة الزواج الثاني» يأخذ اتجاهين :

الأول : أن تكون المشكلة قائمة بالفعل وتلح في طلب الحل .

والثاني : ألا يكون لهذه المشكلة أساس ، وإنما هي ضرب من «الافتعال» ، دفعت الظروف إليه ، فاستخدمه الزوج - كرد فعل - ليهدد به زوجته التي تنغص عليه حياته بين الحين والحين ، وفي إطار وجود المشكلة فعلاً يقول الأستاذ عماد الدين حسين : «إن هز الكتفين لا يحل مشكلة ، كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع - حسبما اتفق - لا يقول به إنسان جاد ، يحترم نفسه ، ويحترم الجنس البشري ! ، فلابد إذن من نظام ، ولابد إذن من إجراء ، وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

أ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج ، ثم تبقى واحدة أو أكثر - حسب درجة الاختلال الواقعة - بدون زواج ، تقضى حياتها - أو حياتهن - لا تعرف الرجال .

ب- أن يتزوج الرجال الصالحون - كلهم أو بعضهم - أكثر من واحدة ، وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل زوجة شريفة في وضح النهار والنور ، لا عشيقة في الحرام والظلام .

إن الاحتمال الأول ضد الفطرة ، وضد الطاقة ، بالقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال ، ولا يلغي هذه الحقيقة ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب ، فالمسالة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحذلقون عن فطرة الإنسان ، وألف عمل وألف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبَعية ، سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة . ومطالب الروح والعقل ، ولكن هذا لا يكفيه ، فيروح يسعى للحصول على العشيرة ، والمرأة مثل الرجل في هذا فهما من نفس واحدة .

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف ، وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف وضد كرامة المرأة الإنسانية ، والذين لا يستحون أن تشيع الفاحشة في المجتمع هم أنفسهم الذين يتعالون على الله ، ويتطاولون على شريعته ، لأنهم قد لا يجدون مَن يردعهم عن هذا التطاول ، بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير !

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام ، يختاره رخصة مقيدة لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه «هز الكتفين» ، ولا تنفع فيه الحذلقة والادعاء ، يختاره متمشياً مع واقعيته الإيجابية في مواجهة الإنسان - كما هو - بفطرته وظروف حياته ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر ، ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح ، والرقي به في يسر ولين وواقعية» انتهى .

أما الإطار الثاني : فيتمثل في «مشكلة التهديد بالزواج الثاني» ، فهو يتشابه مع ما سبق أن طرحناه من «مشكلة التهديد بالطلاق» ، من حيث الآثار النفسية والاجتماعية التي تترتب على كليهما ، فالزوج الذي يهدد زوجته دائماً بأنه سوف يتزوج بغيرها ، هذا الزوج يهدد - غالبا - بما لا يفعل مما يفقد هذه «الوسيلة» أثرها ، أو تأثيرها في عقاب الزوجة أو ردعها ، هذا إن كان يستخدم هذا الأسلوب للتهديد فقط ،

بل قد تدفعها هذه «الحيلة» لأن تزيد من عنادها والاستمرار في تمردها ، أما إذا كان الرجل جاداً في أمره هذا - لكنه يهدد مع التأجيل - فإنه دون أن يشعر يسحب بساط الأمن والثقة من تحت أقدام زوجته ، مما يعرضها للوقوع في براثن الشك ، وتذهب بها ظنونها وهواجسها كل مذهب ، مما يحول حياة تلك الأسرة إلى ما يشبه المسافرين الذين يوشك «تاريخ إقامتهم» في البلد - الذي هم فيه - على الانتهاء وفقدان الصلاحية ، وهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً !!

فأي حياة زوجية سيكون لها النجاح والدوام وتؤتي ثمارها ، وقد هبت عليها ريح كريهة من التهديد الذي يهز القواعد النفسية التي لا يقوم البيت إلا عليها ؟!!

نشوز الزوج

لابد للحياة بين الزوجين من ضمانات ومحصنات تحفظ لها رونقها ونضارتها كي نحصد منها أطيب ما فيها من ثمار ، وأمتع ما فيها من سعادة ، والضمانات التي نقصدها ونريدها لحياتنا الزوجية كفلها ديننا الحنيف بما أرشدنا إليه من تعليمات وتوجيهات تجعلنا - إن التزمناها - نحيا حياة السعداء ، وليس معنى ذلك أن العلاقة الزوجية ستصير خالية من المشكلات تماماً ، لكن المهم هو كيف نتغلب على مشاكلنا ونضعها في حجمها الطبيعي بغير تضخيم ؟ ، وأن يكون لدينا الوعي اللازم بالأدوية الشرعية التي تقاوم الآفات التي تحاول «قرض» هذه العلاقة والقضاء عليها !

ومن الآفات التي تتسرب - أحياناً - إلى حياتنا الزوجية مسألة «النشوز» ، ولا أدري ما السبب الذي جعل هذه الكلمة «النشوز» تنصرف - في أذهان الكثيرين - حين تسمع إلى سلوك وتصرف «الزوجة» دون الزوج ، مع أنه سلوك بشري قد يحدث من الزوجة ، وقد يكون من الزوج على حد سواء ، والنشوز هو «التباعد والإعراض» ، فإذا كان من الزوج فمعناه الجفاء والصد ، ومن مظاهره ألا يكلمها ولا يؤانسها ، وأياً كانت الأسباب المؤدية إلى هذه الحالة من «الجفاف العاطفي» فإن على الزوجة المسلمة - التي تتقي ربها ، وتبتغي الحفاظ على كيان حياتها الزوجية من التصدع والانهيار - عليها أن تسارع بقطع السبيل المؤدية إلى كل ما من شأنه تنغيص وتكدير تلك الحياة ، فإذا شعرت - مجرد شعور - بشيء من التغيُّر بادرت هي - بذكاء - إلى التقرب إلى زوجها بكل ما يحب ، ولا بأس أن تتهم نفسها بالتقصير في حقه كي يدفعها هذا الإحساس للوصول معه إلى الأمثل والأجمل في طريقة التعامل - دون رياء أو تكلف - مما يحفظ الحياة من استفحال المشاكل ، فإن هي فعلت ذلك ورأت من زوجها استمراراً في نشوزه وجفائه جاء دور المصلحين كحل أخير لإنقاذ هذه الحياة من الغرق والتلاشي ، وهنا يقول المولى - جل في علاه - ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً والصُّلْحُ خَيْرٌ وأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وإن تُحْسِنُوا وتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء : ١٢٨] .

ومن أجمل ما جاء في هذا الأمر ما رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي قال : « جاء النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت فاطمة فلم يجد علياً فقال: أين ابن عمك ؟ فقالت : كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل أنظر أين هو فقال : هو في المسجد راقد . فجاء وهو مضطجع وقد سقط رداءه عن شقه فأصابه تراب فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : قم يا أبا تراب».

قال سهل : وما كان له اسم أحب إليه منه .

إن الزوجة الذكية الواعية هي التي تحاصر بوادر «النكد» ولا تعطي للشيطان فرصة للعبث بحياتها ، فإذا رأت زوجها مغضباً أو مهموماً لأي سبب بادرته بكلماتها الرقيقة وبسمتها الحانية ، قائلة له في تودد : «مالك يا حبيبي ؟ لماذا أنت مهموم ؟ لا أحب أن أراك مهموماً أبداً ؟ لا تحمل هم أي شيء ؟ كل مشكلة ولها حل ، الله معك فلا تحزن ، ليس لنا بعد الله إلا أنت» إن مثل هذه الكلمات الجميلة الطيبة يمكن أن تفعل في نفس الزوج فعل السحر، وتزيد من رصيد حبه لزوجته بشكل كبير.

أما إذا كانت بعض تصرفات الزوجة هي سبب غضب الزوج ومن ثم نفوره وإعراضه عنها فإن دخول الزوجة لجنة ربها مرهون بسرعة اعتذارها لزوجها ليس مجرد اعتذار جاف لا يزيد الأمر إلا نفورا وتعقيدا ، بل اعتذار ينم عن مدى الحب الكامن في نفس هذه الزوجة ، وصفاء سريرتها ، ونقاء فؤادها فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ألا أخبركم برجالكم في الجنة ؟! ، قلنا : بلى يا رسول الله ! . قال : النبي في الجنة ، والصِّديق في الجنة ، والرجل يزور أخاه - في ناحية المصر لا يزوره إلا لله - في الجنة ، ألا أخبركم بنسائكم في الجنة ؟! ، قلنا : بلى يا رسول

الله ! . قال : ودود ، ولود ، إذا غضبت أو أُسيئ إليها أو غضب زوجها قالت : هذه يدي في يدك ، لا أكتحل بغمض حتى ترضى !» رواه الطبراني .

ويحكي لنا أحد العلماء حكاية زوجة طبّقت هذا الحديث الشريف في خلاف مع زوجها ، فيقول : «لقد جربت هذا الحديث زوجة أعرفها مع زوجها ، وكانت قد سمعته مني ، وكنت تدخلت بينهما ، فذكرا لي - بعد وقت مضى من سماعه - أن الخلاف استحكم بينهما ذات ليلة حتى ظنا أن العلاج في الطلاق ، وفجأة تذكرت الزوجة المباركة حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المذكور ، فقامت لتوّها دون أدنى تفكير ، وهي تقول : اللهم صلِّ عليك يا نبي ! ، وذهبت للحجرة التي فيها زوجها ، وقالت : يا فلان ! هات إيدك أبوسها ، أنا مش جاي لي نوم ، وكانت المفاجأة ، حيث قام دون كلام ، وأخذ هو يقبّل يدها ، ويعتذر ، وهما يبكيان معاً ، وذاب الخلاف مع الدموع ، وخرج الشيطان بغير رجعة ، وأصلح الله ذات بينهما !» .

نكران المعروف

الاعتراف بالفضل والمعروف خلق رفيع ، وصفة كريمة تدل على أصالة معدن صاحبها ، وحسن خلقه ، وجمال طبعه ، وهي صفة تدل - كذلك - على أن صاحبها ذو قلب فطري طيب ، والحكَم العدل - سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل : ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاَّ الإِحْسَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[سورة الرحمن:٦٠،٦١] ، ومقابلة الحسنة بالشكر والعرفان خلق قرآني ، وأدب نبوي ، يقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : «مَن صُنع له معروف ، فقال : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء» ، والعلاقة الزوجية إذا أظلتها روح الحب والوفاء والاعتراف المتبادل بالفضل والمعروف تلاشت منها نوازع الشر ، ووُئدت في مهدها عقارب البغضاء ، ولم تجد الشحناء سبيلاً إلى قلوب الزوجين ، فالزوجة التي تذكر لزوجها كدحه وتعبه من أجلها وأجل أبنائها إنما تدفعه إلى المزيد من الجهاد والسعي الذي يعود على الأسرة بالنفع والفائدة ، وهو إذ يتعب ويكدح ينتابه شعور غامر بالرضا والسعادة ؛ لأن من ورائه زوجة تقدر جهده ، فإذا قدم لها هدية - ولو قليلة - ظهرت على وجهها علامات البشاشة والفرحة والرضا ، وأشعرته أنه قدم لها أغلى هدية في الوجود ، ودعت له بما هو خير ، وكذلك الزوج الذي يقدر لزوجته جهدها ومعاناتها ورعايتها لبيتها وقيامها بدورها بإخلاص - هذا الزوج بهذا السلوك الرشيد يولد في زوجته طاقة كبيرة للقيام بدورها على الوحه الأكمل دون كلل أو ملل ، ومن أخطر العوائق التي تكاد توقف مسيرة الحياة الزوجية أن يهدر أحد الزوجين الطاقة النفسية لشريك حياته ، فهناك من الزوجات مَن ترى في عمل زوجها وجهاده بل وفي غربته عن دياره - إن كان قد سافر للعمل من أجل تحسين المستوى المادي لأسرته - أقول هناك زوجة ليس عندها أي تقدير لهذا ، فهي تنظر إلى الأمر من زاوية الواجب المحتم ، وإذا ضاق الزوج وصرخ في وجهها قائلاً : «ألا تقدرين تعبي وشقائي من أجلكم ؟!» ردت - في برود تُحسد عليه - : «كل الرجالة بيشقوا ويتعبوا !» ، ولنا أن نتصور مرارة شعور هذا الزوج التعيس وهو يعيش مع زوجة لا

تقدر ولا تعترف بالجميل ولو بكلمة طيبة ، وكذلك الزوج الذي يرى زوجته تعمل جاهدة على إسعاده وإسعاد أبنائه فتضع لمسات الجمال على كل قطعة أثاث في البيت ، تحاول أن تكون زوجة صالحة بكل معنى الصلاح والسكن والمودة والرحمة والحنان والبسمة والنظام والنظافة والهدوء .. الخ ، ترى زوجة كهذه أليست هي خير متاع الدنيا ؟ ، أليست - في زماننا وفي كل زمان - نعمة تستوجب أن يسجد زوجها لربه شكراً على توفيقه أن اختارها شريكة لحياته ، هل يكون من الصعب على الزوج أن يشجعها بكلمة طيبة تُظهر مدى تقديره لما تقوم به من جهد معه ومع الأبناء ؟ ، فليس من قبيل المبالغة أن الزوجة هي جنة البيت أو ناره ؛ من أجل ذلك فإنه يجب على كلا الزوجين أن يعترف كل منهما للآخر بالجميل ، ولا يجحد أحدهما معروفاً يقدمه الآخر ، فإن ذلك الجحود يُحدث شرخاً كبيراً في جدار الحياة الزوجية .

وهذه قصة طائر يرد الجميل أوردها بطولها - لما فيها من الفائدة الكبيرة - : «فرغ الشيخ من أداء صلاة العشاء ، ثم عاد إلى جلسته الأولى ، وأسند ظهره إلى جدار الغرفة ، وأخذ يتمتم بأدعيته مثلما يتمتم بعد كل صلاة ، وكانت الغرفة قد أظلمت تماماً إلا من بصيص ضئيل يتسلل من خصائص النافذة التي تطل على السوق الكبيرة في مدينة الكوفة ، ولم يحس الشيخ بدخول خادمه «مسعود» ، يحمل القِنديل بعد أن أشعل فتيلته ، ثم يضعه داخل كُوَّته في الركن القريب ؛ حيث يرسل مع ضوئه الأصفر الباهت ظلال الأشياء المبعثرة على الأرض هنا وهناك ، بينما ظل مسعود يجئ ويروح وراءه ، وهو يعيد ترتيب أثاث الغرفة ؛ ليهيئ لسيده فراش نومه بعد أن يحضر له طعام العشاء ، ولما فرغ مسعود من مهمته ، وقف بين يَدَي الشيخ يعرض عليه ما لديه من بقية طعام يمكن أن يقدمه إليه في هذه الليلة . لكن الشيخ لم يرد على خادمه ، بل نظر في وجهه ، وأخذ يحدق فيه طويلاً حتى استراب «مسعود» في نظرات سيِّده ، الذي لم يلبث أن قال : أحب يا مسعود ! أن نتناول معاً - على غير المألوف - طعام العشاء ؛ فلديَّ حديث أحب أن أنهيه إليك .

قال مسعود بعد أن سكن خاطره : بأبي أنت وأمي يا سيدي - قد فرغت منذ لحظة من عشائي ، وما أقدر أن أزيد شيئاً ، أما ما تحب أن تقوله لي ، فكلي آذان صاغية ، وستجدني - كما عهدت - أطوع لك من بَنانك .

عاد الشيخ إلى صمته لحظة ، وأخذ يدير عينيه في أرجاء الغرفة الواسعة وفي النهاية أراح نظراته على وجه غلامه ، ثم قال : إذن تجلس قريباً مني - يا مسعود - حتى توفر عليّ رفع صوتي بما لا أحب أن يسمعه غيري وغيرك .

وجلس «مسعود» على الأرض بين يدي الشيخ الذي مد يده النحيلة فوضعها على كتف مسعود ، ثم قال : أحب - يا مسعود !- أن ألقى وجه ربي يوم الحساب بكفة راجحة من صالح الأعمال تقرباً إلى رضائه ، ولست تجهل - يا بني - ما يخفى عليك مما صارت إليه حالي من ذل بعد عزة وعسر بعد يسر وتفرق الأهل والصحب ما بين شرق وغرب ، ولقد أضحى بقاؤك معي ظلماً لنفسي ولك بعد أن نفد مالي ، ولم أعد أملك ما أنفقه حتى على نفسي ، فما بالك وأنت معي وأنا مكلف بك أمام الله والناس ، ساعتئذ اغرورقت عينا «مسعود» بدموع غزيرة ، أخذ يكفكفها بكفيه ، ثم قال في ألم : وماذا تحب - يا سيدي - أن أفعله ؟!

قال الشيخ : لست أحب أن تفعل شيئاً إلا أن تضرب في فجاج الأرض معتقاً حراً ، تملك أمر نفسك وحياتك ، باحثاً عن رزقك في غير صحبتي ، وها هي ذي وثيقة عتقك ، قدمْها غداً إلى قاضي الكوفة مع شهود لك ، لتصير حراً منذ الغد . وهذان ديناران - هما كل ما أملك - بعد أن احتجزت لنفسي مثلهما ، ولا تراجعني فيما أبرمت عليه أمري ، فتلك وسيلتي إلى قُربي ممن يملك كل شيء .

خرج «مسعود» من دار القضاء في الكوفة يحمل بين يديه وثيقة عتقه ، وأخذ يطاوبها بعناية بالغة ، ثم أودعها مع حوائجه القليلة ، واتخذ طريقه إلى مكان القافلة المسافرة بعد صلاة الظهر إلى بغداد ، وصل «مسعود» إلى بغداد - تلك التي كان يحلمُ في نومه ويقظته بالذهاب إليها - ليقضي في مغانيها أياماً قصاراً ، يؤوب بعدها إلى دار

سادته سعيداً بما شهد وسمع ، ثم لا يلبث أن يصحو من نومه مفزعاً على مطارق الحقيقة المُرّة ، التي يعيش فيها مع الشيخ الفاني رب الأسرة الكبيرة ، التي كانت إلى وقت قريب أكثر بيوتات الكوفة ثراءاً ونعمة . ولم تلبث القافلة أن حطت بركبها ووضعت أثقالها عند أول أبواب بغداد ، فأخذ كل مسافر يجمع حوائجه ، ثم يأخذ سبيله إلى حيث يريد .

اقترب «مسعود» من دليل القافلة يسأله عن مكان خان قريب ، يبيت فيه ليلته ريثما يطلع الصباح الجديد ، فأرشده الرجل إلى مكان مبيته ، ولم يلبث «مسعود» أن ألقى بجسده المتعب على الفراش ، ثم غاب في نوم ثقيل ، وفي اليوم التالي أحس «مسعود» بالجوع ، فخرج إلى السوق يبحث عن طعام يسد به جوعه ، وتلفت «مسعود» حواليه ، فأبصر بائعاً جائلاً يبيع فطائر محشوة بالزبد والزبيب ، فاشترى منه واحدة ، وشرع في أكلها ، وأقبل بائع من بعيد يحمل فوق رأسه قفصاً بداخله طائر ملون الريش ، وأخذ ينادي على طائره : مَن يشتري البلبل الصداح ؟ .

واقترب صاحب البلبل من «مسعود» ، وهو يقول : خير هدية إلى أطفالك وأهل بيتك يا سيدي ، ولم يبرح البائع مكانه ، فالتفت إليه «مسعود» ، ثم قال : ليست لي حاجة إليه ، لكن البائع ألح على «مسعود» حتى اشترى منه الطير ، وسار «مسعود» يحمل طائره حتى بارح ساحة السوق ، وانتبه «مسعود» إلى ما يحمله بين يديه لما أن تحرك الطائر في القفص ، وأخذ يزقزق في إعياء ، كأنما يطلب طعاماً أو شربة ماء ، ساعتها أدرك «مسعود» ما أقدم عليه من حماقة حين أنفق آخر ما معه ، ليشتري طائراً حبيساً في قفص ، لن يجديه اقتناؤه شيئاً ، ماذا يفعل بهذا الطائر وهو لا يملك داراً ولا مالاً ؟ .

وقبل أن يستبد به لوم نفسه فتح باب القفص ، فخرج منه الطائر ، ثم أطلق جناحيه للريح ، وأخذ مسعود يتابع الطائر بنظراته الذاهلة ، فرآه قد حَطّ فوق أعلى شجرة ، وأخذ ينشر جناحه تارة ، ويضمها تارة أخرى ، كأنما ابتهج بإطلاقه من القيد والجوع والظمأ .

ثم أخذ مسعود ينظر إلى حيث حط الطائر ، فرآه يدور حول جذع شجرة غليظ ، حتى إذا ما دار حوله دورة أو دورتين أخذ ينبش الأرض بمنقاره الدقيق ، ثم يلف ويدور هنا وهناك ، ويقترب من «مسعود» ، ويعود ليعمل بمنقاره في الأرض الرخوة من حول الجذع الغليظ .

وقام «مسعود» واتجه إلى حيث كان الطائر ينبش بمنقاره ، وكانت المفاجأة العجيبة أن رأى «مسعود» جرَّة من الفخار دُفنت في باطن الأرض ، ولم يبدُ منها سوى تلك الأذن ، فالتهب حماس «مسعود» في الحفر من حولها ، حتى استخلصها من الأرض وحملها وانطلق إلى حجرته ، وأغلق بابها عليه ، وقضى أغلب ليلته السعيدة يحصي الدنانير الذهبية التي امتلأت بها الجرة ، وحين طلع صباح اليوم التالي سافر «مسعود» إلى الكوفة ، والتقى بسيده وقصَّ عليه قصته مع الطائر ، فتبسم الشيخ ، والدموع تلمع في عينيه ، وهو يقول : «هذا جزاء الإحسان يا مسعود !» .

المراجع

(1) الخلافات الزوجية في ضوء الكتاب والسنة ، رعد كامل الحيالي ، دار ابن حزم ، بيروت .

(2) مواقف من حياة النساء ، عماد حسن الشافعي ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، مصر .

(3) ما تحبه النساء في الرجال ، عايدة أحمد صلال ، دار الطرابيشي للدراسات الإنسانية ، سوق الكتاب الجديد ، القاهرة .

(4) خُلُق المسلم ، محمد الغزالي ، دار الكتب الإسلامية ، عابدين ، القاهرة .

(5) القيم الإسلامية في الأسرة والمجتمع ، محمد محمود عمير ، دار الطباعة والنشر الإسلامية ، القاهرة .

(6) ترويض الرجل ، د. يحيى الأحمدي ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير ، القاهرة .

(7) جدد حياتك ، محمد الغزالي ، دار الريان للتراث ، مصر .

(8) طائر يرد الجميل ، حسين الطوخي ، مكتبة دار حواء ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

(9) موقف الإسلام من الحب ، محمد إبراهيم مبروك ، النور الإسلامية

(10) بيعة النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : محمد علي قطب ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع .

(11) مقال "المرأة بين الدور والعمل" : محمد أحمد حسن الشافعي ، مجلة الوعي الإسلامي ، الكويت ، العدد رقم ٣٣٣ .

(12) رياض الصالحات ، بدوي محمود الشيخ ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة .

(13) تحفة العروس أو الزواج الإسلامي السعيد : محمود مهدي الإستانبولي ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

(14) الزواج في ظل الإسلام ، عبد الرحمن عبد الخالق ، مكتبة السنة ، القاهرة .

(15) كواكب حول الرسول (قضية التعدد) : عبد الحليم خفاجي ، دار الوفاء ، للطباعة والنشر ، القاهرة .

(16) تحرير المرأة في عصر الرسالة (ج٦) ، عبد الحليم أبو شقة ، دار القلم ، الكويت .

(17) ادفعي زوجك إلى النجاح : دوروثي كارنيجي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

(18) خبرات الزوج السابق ؛ محمد فصيح بهلول ، دار البشير ، القاهرة .
(19) السعادة الزوجية في الإسلام ؛ أحمد عبد الجواد الدومي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والتوزيع ، القاهرة .
(20) المسلمة المعاصرة التزام ودعوة ؛ حيدر قفة ، دار البشير ، القاهرة .
(21) دليل الزوجة المسلمة ؛ د.مبروك عطية أبو زيد ، دار مايو الوطنية للنشر .
(22) اللقاء بين الزوجين في ضوء الكتاب والسنة ، عبد القادر أحمد عطا ، دار التراث العربي .
(23) أنت ونفسك ؛ د.يسري عبد المحسن ، كتاب اليوم الطبي ، دار أخبار اليوم ، القاهرة .
(24) مكانة المرأة في الإسلام ؛ محمد عطية الإبراشي ، دار الشعب ، القاهرة .
(25) الطلاق ليس حلاً ؛ د.عادل صادق ، دار أخبار اليوم ، القاهرة .

المحتويات

رقم الإيداع : ١٩٩٩/١٦٦٤٦

كتب للمؤلف

* * *

